دموع ضرغام

قصص قصيرة

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبْعَة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

****

رقم التصنيف : ٨١٣,٠١

المؤلف ومن هو في حكمه : عبد الله عيسى السلامة

عنوان الكتاب : دموع ضرغام

الموضوع الرئيسي : ١ـ الآداب ٢ـ الأدب العربي ٣ـ القصص القصيرة

رقم الإيداع : ١٩١٨/١١/١٩٩٨

بيانات النشر : عمان / دار البشير

* ـ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٦٥٠/١١/١٩٩٨

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ وطى المصيطبة ـ شارع حبيب أبي شهلا ـ بناية المسكن

تلفاكس:٨١٥١١٢ـ ٣١٩٠٣٩ـ ٦٠٣٢٤٣ ص.ب:١١٧٤٦٠ـ برقياً : بيوشران

Al-Resalah PUBLISHERS

BEIRUT / LEBANON - TELEFAX: 815112 - 319039 - 603243.- P. O. BOX: 117460

E. mail: Resalah@Cyberia. net. lb

دار البشير للنشر والتوزيع

مركز جوهرة القدس التجاري ـ العبدلي ـ هاتف : ٤٦٥٩٨٩١/٤٦٥٩٨٩٢ ـ فاكس : ٤٦٥٩٨٩٣

ص.ب : ١٨٢٠٧٧ / ١٨٣٩٨٢ ـ عمان ١١١١٨ الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution

Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali - Tel: 4659891 / 4659892 - Fax: (4659893)

P.O.Box. (182077) -(183982) - Amman 11118 Jordan

دموع ضرغام

قصص قصيرة

عبد الله عيسى السلامة

مؤسسة الرسالة
دار البشير

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

مأساة تاجر الذّراع

أبو صطيف رجل ضخم الجثة، كبير الرأس، قويّ البنية. . بلغ الستين من عمره، ولم تزل لديه فتوّة ابن الأربعين، وقوام نخلة عتيّة شامخة.

كان والده يقيم في حيّ شعبيّ من أحياء حلب القديمة، ويعمل في محلّه الصغير في سوق «المدينة»، ذلك المحلّ الذي ورثه عن أبيه المرحوم الحاج سعيد المكنى بأبي صطيف، والذي يعمل فيه بتجارة القماش. .

كانت الأسرة عامّة، تمتاز بالسماحة وكرم النفس. . ولقد توارثت هذا المحلّ الصغير، وتوارثت معه مجموعة من الصفات الحميدة، كصدق المعاملة، والإحسان إلى ذوي الحاجة، والشهامة، والبراءة التي تقرب من السذاجة الطفوليّة أحياناً، والتي تضفي على نفوسهم وعلى من حولهم جوّاً من المرح اللطيف في حالة الرضى، وجوّاً من الهيجان والتحدّي في حالة السخط. .

لقد ورث أبو صطيف الحفيد، عن والده الحاج مصطفى هذه الصفات، وورثها الحاج مصطفى عن والده الحاج سعيد. .

وكما توارثت الأسرة هذه الصفات والمحلّ الصغير لبيع القماش في سوق المدينة، توارثت كذلك مجموعة من الأسماء. . فالابن يكنى باسم أبيه حكماً، ومنذ صغره. . لذا يجب عليه أن يسمّي

ابنه البكر باسم والده.. ومن هنا جاءت تسمية الحفيد «سعيد»، باسم جدّه، وجاءت كنيته كذلك ملائمة لهذا الواقع..

كان أبو صطيف الحفيد، قد تعلّم القرآن على يد أحد المشايخ الفضلاء، وكان في هذا كفاية.. يجيد قراءة القرآن، ويجيد معها القراءة والكتابة.. وكان هذا هو الطابع العام لقطاع كبير من أبناء هذه المدينة في مرحلة ما..

كان أثر العمل المبكر في التجارة «تجارة القماش»، بارزاً في حياة أبي صطيف..

فقد أضفى على تفكيره وسلوكه وطريقة حديثه سمات معيّنة، هي مزيج من آثار الوراثة والتربية المنزليّة، والصفات الشخصيّة، وآثار السوق الصغير الضيّق الذي يعمل فيه، حيث يوجد محلّه الصغير..

ولما كان البيع في هذا المحلّ، كما هو في السوق، يكاد يقتصر على القماش، ولما كانت الوحدة الأساسيّة المعروفة لقياس القماش هي «الذراع».. كان لهذه الكلمة «الذراع» في تفكير أبي صطيف وطريقة حديثه أثر بارز مميّز.. فهي «الذراع» لا تكاد تفارق لسانه، يقيس بها في محلّه، ويشتري بها بضاعة من الآخرين، ويحسب كلّ ماله من بضاعة وما عليه، وما باعه وما اشتراه بها: «اليوم اشتريت ألف ذراع، بعت منها مئة وخمسين ذراعاً لزبون المحلّ فلان، ومئتي ذراع لزبائن متفرقين غرباء، وبقي لديّ من هذه البضاعة ستّ مئة وخمسون ذراعاً..»

كانت طريقة حساب أبي صطيف كلها بهذا الشكل، سجلاّته،

دفاتره، حساباته الذهنيّة، معاملاته مع الآخرين، أحلامه في نومه، طموحاته التجاريّة.. كلّ ذلك يحسب لديه بالذراع.. وبالذراع وحده..

ولعلّ للرجل عذراً في هذا كله.. فدنياه كلها محصورة في هذا الإطار.. منذ طلوع الشمس حتى غروبها في المحلّ، باستثناء أوقات الصلوات التي يؤدّيها في المسجد القريب ويعود..

أما شبكة علاقاته الاجتماعيّة، فلم تكن خارجة عن هذا الإطار، سهراته مع أصدقائه تجّار السوق، نزهاته، مجاملاته، زياراته..كل ذلك محصور تقريباً في هذا الإطار.. وقد ألف لسان الرجل كلمة «الذراع» إلفاً عجيباً، فهو منذ سن العاشرة، حتى الستين، يرددها في كل ساعة مرات عدّة، حتى أصبح ترديدها إدماناً ومتعة، وضرورة لتحقيق الذات.

إلاّ أن أحوال البلد تغيّرت قليلاً، ثم ازداد التغيّر، ثم اتّسع وتعمّق، ودخلت البلاد علاقات جديدة، ووسائل جديدة، ومخترعات جديدة.. ومع ذلك، ظلت هذه الكلمة «الذراع» هي السائدة في أحاديث أبي صطيف.. فقد أصبحت جزءاً أساسيّاً من تكوينه النفسيّ والفكري، وأدخلت في كل خليّة من خلايا دماغه، وفي كل منحىً من مناحي نفسه المتدفقة سماحة وطيبة وبراءة..

أصبح لأبي صطيف علاقات جديدة، وصداقات جديدة، وسفرات جديدة إلى المدن والأرياف، ولكن كلمة «الذراع» لا تفارق لسانه..

اشترى جهاز «راديو» بعد تردّد طويل، بعد أن حصل على

فتوى شرعيّة بجواز اقتنائه مع الحذر من الأغاني الماجنة والقصص المنحرفة التي تُبثّ فيه.. واعتاد على سماع الأخبار، وسماع بعض البرامج والتحليلات السياسيّة والاقتصادية وغيرها، لاسيّما في المساء حين يكون في بيته.. ومع ذلك لم تستطع كل هذه البرامج أن تلغي من رأسه أو فمه كلمة «الذراع»..

كان مرّة في سهرة مع بعض أصدقائه، وكان المذيع يقرأ نشرة الأخبار، فسمع خبراً عن وصول مركبة فضاء أمريكيّة إلى القمر، فضحك باستغراب وقلب يديه وهو يقول: «ما أقلّ عقول هؤلاء الناس! هل يحسبون أنهم يضحكون بعقولنا!؟» فسأله صديقه التاجر أبو عدنان: «ولم تقول هذا يا أبا صطيف؟» قال أبو صطيف: «يقولون إنهم وصلوا إلى القمر» قال أبو عدنان: «ألا تصدّق هذا الكلام يا أبا صطيف؟» قال أبو صطيف: «وهل تحسبني مجنوناً!؟ يا رجل من يصدّق هذا؟ القمر بعيد يا عميّ بعيد.. بعيد جداً.. من يصل إلى القمر!؟» قال أبو عدنان: «صحيح أنه بعيد. لكن البعد اليوم ما عاد مشكلة يا أبا صطيف.. عندك وسائل المواصلات الحديثة هذه تقطع المسافات بسرعة هائلة وبزمن قصير..» قال أبو صطيف: «ياعميّ لو قالوا كلاما يصدّقه العقل لعذرناهم.. أما القمر فبعيد يا أبا عدنان بعيد»

قال أبو عدنان: «وكم تقدّر المسافة بيننا وبين القمر يا أبا صطيف!؟»

صمت أبو صطيف قليلاً وحك ذقنه ثم قال: الحقيقة أنني لا أعرف المسافة بالضبط، لكن أظنّها لا تقلّ عن مئة ألف ذراع»

قال أبو عدنان، وهو من السوق ذاته، إلاّ أن ثقافته العامّة أفضل قليلاً من ثقافة صاحبه، فقد درس حتى الصف الثالث الابتدائي، وهو في الخامسة والأربعين من عمره: «تقول مئة ألف ذراع!؟ سامحك الله! قل: ألف ألف ذراع ولا تخف.. بل قل: مئة ألف ألف ذراع..»

وكان لأبي صطيف مصطلحات وتراكيب معيّنة، اعتاد استعمالها في كلامه، وكلّها تقريباً مما ألفه في بيئته الحلبيّة العريقة. من ذلك مثلاً: «صدّق وآمنْ بالله.. بلا يمين..» ونحو ذلك.. فإذا أراد توكيد أمر ما، يقول لمحاوره: «صدّق وآمن بالله أن القضية كذا وكذا» وإذا أراد المبالغة في وصف طول شيء أو شخص، يقول: «بلا يمين، طوله ثلاثة أذرع»..

كما أنّ لديه كلمات منحوتة أو محوّرة من كلمات فصيحة، مثل كلمة «فَسْطَهُ» أي «في وسطه»، ومثل كلمة «خايْ» أي «أخي».. وقد يستعمل بعض الكلمات التركيّة الأصل، التي تسلّلت إلى اللغة الحلبيّة، بحكم قرب المدينة من الحدود التركيّة، مثل كلمة «قَبَضايْ»، وتحمل معنى الفتوة والشجاعة، ومثل كلمة «زِكُرْتْ»، وتحمل بعض معاني الأريحيّة والشهامة والنجدة..

فكثيراً ما تسمعه يردّد مثلاً: «هذا ما فسطه خير خايْ، أما ترى طوله لا يجاوز ذراعا ونصف الذراع!؟» أو يقول مثلاً «فلانَ.. اسم الله حوله.. طوله ذراعان ونصف.. قبضاي يا خَيّو قبضاي» .وكلمة «خَيّو» محوّرة عن كلمة «أُخَيّ» المصغّرة عن «أخ»..

وقد تسمعه يقول: «فلان.. صحيح أن طوله ذراع وربع..

لكنه زُكُرْت ورجّالْ» وكلمة «رجّال» معناها «صاحب رُجولة»، أي رجل بمعنى الكلمة..

وإذا كانت مظاهر الحياة الجديدة التي بدأت تنتشر في المدينة، بكل ما فيها من علاقات وأنماط سلوك، لم تستطع انتزاع كلمة «ذراع» من رأس أبي صطيف وصدره ولسانه، فإنها لم تتركه يعيش حياته التقليديّة المألوفة، ويمارس أنماط التفكير والحديث التي ألفها خلال ستين سنة من عمره. فقد بدأت تحاصره بشكل مباشر وغير مباشر.. لقد دخل أولاده المدارس، وتعلموا فيها أسماء جديدة ومصطلحات جديدة، من علم الحساب وغيره.. وصار الشباب منهم ينصحون أباهم بالتخفيف من ترديد كلمة «الذراع»، ويذكرون له بعض المقاييس الجديدة التي تعلّموها في المدارس، مثل الميلليمتر، والسنتيمتر والكيلومتر ونحو ذلك.. إلاّ أنّه كان يجد صعوبة كبيرة في إدخال هذه المقاييس إلى معجمه اللغوي المخزون في ذاكرته بعد هذه السنّ.. فكان يردّ على أبنائه بلطف حيناً، وبعنف أحياناً، وبسخرية أحياناً أخرى؛ مردداً عبارات يعتقد أنها تحقّق له نصراً على هذه الثقافة الجديدة، المتجسّدة في أشخاص أبنائه، مثل: «ماشاء الله! هل تريدون أن تعلّموني الكلام يا أولاد..» أو «اسمعوا ياناس: جَدْيٌ يعلّم تيساً..» أو: «لعنة الله على هذا الجيل، لقد أفسدته المدارس».. وقد يغضب أحياناً ويثور، فيشتم أولاده: «اخرجوا عني يا أولاد الحرام.. لعنة الله عليكم وعلى المدارس التي علمتكم قلّة الأدب.. العمى.. نبعث العجي يتعلّم كلمتين، يحسب نفسه أصبح لقمان..» والعجي

معناها في الأصل يتيم الأم وتستعمل للإهانة أحياناً.

وبرغم مكابرة أبي صطيف، وادعائة المستمّر أنه أفهم من أبنائه، وأن الولد مهما تعلّم، يظلّ أقلّ علماً وفهماً من أبيه.. برغم هذه المكابرة، كان يحس في أعماق نفسه بنوع من الحصار الخفي لأنماط تفكيره وحديثه، ولتراكيبه ومصطلحاته، ولا سيّما لفظة «الذراع».. وكان يحسّ بينه وبين نفسه أن التخفيف من استعمال هذه الكلمة أمر لا بأس فيه أحياناً، لا سيّما حين يكون في البيت بعض زملاء أبنائه، إذ قد يعيّر هؤلاء الزملاء أبناءه بأن أباهم جاهل لا يعرف من المقاييس إلاّ «الذراع» وفي هذا ما فيه من الحرج للأبناء.. كان يحسّ بمثل هذا الإحساس، إلاّ أنّه يحسّ بالخجل كذلك، حين يشعر أنه يخضع لإرادة أبنائه ولثقافتهم العصريّة السخيفة التي لم تعلمهم سوى (قلة الأدب) حسب رأيه.. وكان هذا الصراع بين إحساساته المتضاربة، يولّد له نوعاً من القلق النفسي في أحيان كثيرة.. إلاّ أنه برغم ذلك، بات يشعر في أعماقه، بأنّه يجب على الإنسان أن يساير الآخرين أحياناً، ولو كانوا أبناءه «بشرط ألاّ يخضع لإرادتهم.. فالمسايرة شيء والخضوع شيء آخر.. إن ولداً طوله ذراع وربع، لا يمكن أن يفرض إرادته على أبيه..»

عانى أبو صطيف كثيراً من الأزمات النفسيّة، في صراعه ضد هذه «السخافات» التي دخلت بيته، وعششت في رؤوس أبنائه.. إلاّ أنه بدأ يميل إلى التخفيف من استعمال الذراع، ميلاً مباشراً أحياناً، وغير مباشر أحياناً أخرى.. واعياً أحياناً، وغير واع في

أكثر الأحيان.. لقد بدأت تترسب في حسّه الداخلي «اللاشعور» ضرورة المسايرة.. إلاّ أن الترسبات الجديدة، يصعب عليها إزالة الترسبات القديمة، أو القضاء عليها. ففُتحت جبهة جديدة من جبهات الصراع، في أعماق «اللاشعور» بين ثقافته العريقة الأصيلة، وبين الثقافة الجديدة، التي يريد أبناؤه أن يحشروها في رأسه حشراً «ميلليمتر - سنتيمتر - كيلو متر».. وبدأت ساحة «اللاشعور» المظلمة، تفسح في داخلها، وببطء شديد، أمكنة صغيرة للكلمات الوافدة الجديدة.. وذلك على حساب الكلمات القديمة المتعملقة الممتدّة على طول هذه الساحة وعرضها.. وإذا كانت ساحة الشعور الواعية المصمّمة، قد أفسحت أماكن جديدة للكلمات الجديدة، وضيقت من أماكن الكلمات القديمة، فلا بدّ من أن تنعكس هذه العملية على الساحة الباطنيّة السفلى المظلمة..

ولم يكن أولاد أبي صطيف وحدهم الذين تعلموا في المدارس.. بل كان هناك عدد كبير من أبناء إخوته وأقاربه وأصدقائه وجيرانه ومعارفه.. وهؤلاء يشكلون شبكة جديدة من شبكات العلاقات الاجتماعية، مندمجة في الشبكة القديمة إلى حدّ ما، ومنفصلة عنها إلى حدّ ما.. مشابهة لها في أشياء، ومخالفة في أشياء أخرى.. وهذه الشبكة عنصر آخر من عناصر الضغط، التي تحاصر مزاج أبي صطيف، وتراثه اللغويّ..

وبدأ شعور أبي صطيف و«لاشعوره» يتعاونان أحياناً على فرض المسايرة عليه، ويتعاونان أحياناً أخرى على شحنه بالإحساس بالمكابرة والرفض والتمرّد، ويصطرعان أحياناً فيما بينهما، وأيّهما انتصر، أملى ارادته على سلوك أبي صطيف،

وعلى تراثه الفكري واللغويّ.. يسبقه أحياناً لسانه، فما يحسّ إلاّ وقد امتلأ فمه بكلمة «ذراع»، فينظر حوله، ليرى حجم الأثر الذي تركته في وجوه الحاضرين.. وأحياناً تندفع الكلمة من رئتيه، فيحسّ بها في الوقت المناسب فيحبسها في حلقه.. وأحياناً أخرى لا يتنبه إلاّ بعد أن ينزلق أول حرف على رأس لسانه، وهو حرف «الذال»، فيضطر إلى إكمال اللفظة أنفةً من التراجع أمام الحاضرين، أو تسعفه البديهة فيحولها وهي في وسط الفم إلى كلمة أخرى مبدوءة بحرف الذال، مثل «ذباب، أو ذئب أو نحو ذلك..» وبعد أن تخرج الكلمة المحوّلة، يحاول أن يفتعل لها سياقاً يناسبها كيلا تبدو نشازاً أو ضرباً من الهذيان الذي لا انسجام بين كلماته..

كان مرّة يتحدّث في بيته مع أحد أصدقائه التجاّر، فذُكر اسم تاجر آخر في السوق، وكان أبو صطيف يكرهه، فجعل ينال منه، وكان الرجلان منفردين، في الغرفة، وقد ذهب عليّ، أحد أبناء أبي صطيف لجلب القهوة من المطبخ.. فاستغل والده الفرصة، وقال مخاطباً صديقه التاجر: «هه يحسب نفسه تاجراً، ويريد أن ينافس التجّار أصحاب الصنعة العريقين فيها.. إنه مجرد قزم تافه.. ولو كان له قيمة عند الله لما مسخه، فجعل طوله ذرا» وهنا أحسّ بحركة ابنه الشاب من خلفه، فأكمل على الفور: «ذرَة»..

استغرب صديقه هذه اللفظة، فقال له: وما تعني بالذِّرة يا أبا صطيف!؟

قال أبو صطيف وقد ارتبك واحمرّ وجهه: «أقصد ذِرة..

أعني.. ذِرة.. أعني أعني.. عرنوس ذرة»

قال صديقه باسماً وقد نظر إلى القهوة التي وضعها الشاب أمامه، ثم حوّل وجهه إلى أبي صطيف: «لعلك تقصد ذُرة.. أليس كذلك؟ ذُرة!» ثم سأل علياً وهو في الصف الثاني الثانوي: «أليس كذلك يا عليّ؟ أنتم تقولون في المدرسة ذِرَة أم ذُرة، بضمّ الذال!؟»

ابتسم علي وقال: لا.. إنها ذُرة بالضمّ، بضمّ الذال.

قال أبو صطيف لصديقه متضاحكاً: وهل أصبحت أنت أيضاً مثقفاً وابن مدارس يا أبا نبيل!؟

قال أبو نبيل: لا ياأخي.. العفو.. أنا قطرة في بحرك يا أبا صطيف.. لكنّك قصرت الرجل كثيراً.. فأنا أظنه أطول من عرنوس الذرة بكثير، أليس كذلك؟ ولعلك تقصد شجرة الذرة!

قال أبو صطيف متضاحكاً: نعم.. أظنني أردت شجرة الذرة، فخطفها الشيطان لعنه الله، وأعطاني عرنوساً بدلاً منها..

ضحك الرجلان... وكان الشاب يغادر باب الغرفة إلى مكان آخر..

كان أبو صطيف يحسّ في أجواء الحصار هذه، أنه أصبح غريباً، غريباً بين أبنائه.. إلاّ أن غربته بين هؤلاء الأبناء تتفاوت قوّة وضعفاً.. إنّ أولاده الذكور سبعة، أقلّهم ثقافة هو محمود الذي نال الشهادة الإعداديّة، وترك المدرسة ليساعد أباه في البيع والشراء، وهو الابن الثالث لأبي صطيف من حيث ترتيب السنّ،

وعمره ستّ وعشرون سنة.. وهو لا يتعرض لأبيه بالنقد والمحاصرة، لأسباب عدّة، من أهمها أنّ لديه شيئاً من الصلاح والتقوى، ويعلم أن الإساءة إلى الوالدين أو إلى أحدهما من الكبائر .. كما أن شهادته المتواضعة لا تمنحه الإحساس بأنّه مثقف، وبالتالي، لا يمتلئ صدره غروراً تجاه أبيه التاجر البسيط.. يضاف إلى ذلك، أن عمل محمود مع والده في المحلّ، وتعامله بالذراع صباح مساء، جعلا الأمر طبيعيّاً بالنسبة إليه، وإن كان لم يكتسب من ممارسة البيع والشراء، أيّ نوع من الإدمان على ترديد لفظة «ذراع».. وإذا ردّدها خارج دائرة تجارته، فإنّما يردّدها على قلّة..

أمّا ابنه الأكبر صطيف «مصطفى» المهندس الكهربائي، فإنّ نقده لأبيه، يأتي غالباً على صورة تذكير لبق مهذّب، ذلك أن احساسه الاجتماعي بضرورة احترام الابن لأبيه، لا سيّما أمام الناس، يملي عليه نوعاً من السلوك المتّزن، وإن كان يحسّ أحياناً بأن جهل أبيه بالمصطلحات العصريّة، يشكل له حرجاً غير يسير، لا سيّما ترديده للفظة (الذراع)، ذات الإيحاء المتخلّف، بشكل كبير، وأحياناً بين المثقفين الغرباء، الذين يبتسمون بسخرية حيناً، وبغرور علميّ حيناً آخر.. ولعلّ لإحساس مصطفى بأنه أكبر أبناء الحاج سعيد، وبأنه خليفته في الأسرة، أثراً بارزاً في هذا التوازن تجاه مواقف أبيه الملأى بمصطلحات تاريخيّة متخلفة، هذا فضلاً عن عامل السنّ؛ اذ تجاوز مصطفى الخامسة والثلاثين من عمره، واكتسب من الحياة أن الهندسة علم، وأن برّ الوالدين خُلُق، وأنّهما ليسا ضدّين

يتصارعان، بل هما أخوان حميمان، يتعاونان على إقامة الحياة الإنسانيّة الراقية الفاضلة.. وإذا كان جهل الحاج سعيد بالمصطلحات العصريّة يجعل ابنه مصطفى يعاني من مركّب نقص أمام الغرباء، فإن مركب النقص هذا، لا يدفع مصطفى إلى إهانة والده أو الإساءة إليه، فالأمراض الاجتماعيّة لا تعالج بهذه الطريقة، ومعالجة الأمر السيّء بأمر أسوأ منه، لا تزيد القضيّة إلاّ سوءاً وحرجاً وتعقيداً. بيدَ أنه برغم هذا، لا يفتأ يلحظ أباه بين الفينة والأخرى، في كلّ مجلس يضمهما معاً، مع بعض الأقارب أو الغرباء، بطريقة تحمل العتب والتذكير، كلما تمادى أبوه في استعمال الذراع في عمليات القياس، لاسيّما البعيدة عن إطار البيع والشراء ونحو ذلك.. أما في المحل، أو في السوق عامة، عند التعامل مع التجّار أو الزبائن، فيتسامح مصطفى كثيراً مع والده في استعمال الذراع، بل قد ينوب عن والده في حال غياب الوالد عن المحلّ، فيمارس البيع والشراء بالذراع دون حرج..

أما البلاء الحقيقي الذي يعاني منه الحاج سعيد، فيكمن في دماغ ابنه الثاني «رشاد» مدرّس الفلسفة وعلم النفس، الذي تجاوز الحادية والثلاثين من عمره، ومع ذلك يتريّث في موضوع الزواج، ويقيم في بيت والده الواسع، في غرفة خاصّة، يتخذ منها غرفة نوم، ومكتبة، وغرفة طعام، وغرفة استقبال.. فضلاً عن السهرات اليوميّة التي تمتدّ إلى قبيل الفجر أحياناً، مع بعض زملائه المدرّسين، الذين لا عمل لهم إلا المناقشات المتشعبة، والثرثرة، والتدخين، والتفلسف في قضايا الأخلاق وعلم

الاجتماع وعلم النفس، وسيَر الفلاسفة الأقدمين والمعاصرين.. لقد كان «رشاد» شرساً في معاملة والده، كثير الانتقاد له، والنيل من تصرفاته وتراكيبه ومصطلحاته، ولغته عامّة، وحتى لباسه المكوَّن من بدلة عربيّة، قوامها ثوب من القماش الجيّد، ومعطف رقيق من جنس الثوب، يصل إلى الركبتين.. ويغطي رأسه بطربوش أحمر نظيف، تُلف حوله قطعة قماش من النوع الناعم الذي يشبه الحرير في نعومته ورقته وجودة نسجه.. وينتعل حذاء جيّداً نظيفاً ملمعاً، سهل اللبس والخلع، فوق جورب نظيف أبداً، لا يتركه يتّسخ حتى يخلعه للغَسل، ويلبس غيره..

كان رشاد، ينتقد حتى هذا النوع من اللباس التقليدي الذي يلبسه والده.. وعيب اللباس هذا، في نظر رشاد، أنّه تقليدي، يمثّل مظهراً من مظاهر الحياة القديمة المتخلفة.. ويأتي هذا الانتقاد بصيغ مختلفة، منها الغمز، والسخرية الخفيّة، والتلميح، والابتسام الموحي.. وغير ذلك من أساليب يدركها والده جيّداً، فتنغرس في صدره كالسهام القاتلة.. فيتّخذ منها مواقف تختلف باختلاف ظروفه، من حيث الجوّ المحيط به، والظرف النفسي الذي يضطرب في داخله.. يصمت أحياناً، ويثور أحياناً،ويسخر أحياناً، ويضرع إلى الله أحياناً، بأن يجازي هذا الولد العاقّ بما يستحقّ من جزاء..

ومصيبة أبي صطيف في ابنه هذا، أن هذا الولد يملك لسانا ذرباً في فن الكلام، قادراً على التفلسف في كل الأمور، حتى تلك التي لا يملك عنها إلاّ معلومات نادرة.. فهو لا يتحرّج من

الخوض في أي موضوع، حتى لو كان من علم الغيب الذي لا يعرف عنه إلاّ القليل، والذي يسميه «الماورائيات».. متأثرا بذلك، بأساليب الفلاسفة القدماء والمحدثين، ولا سيّما فلاسفة اليونان، والفلاسفة الأوربيين المعاصرين..

في مجلس عام عند أحد الأقارب، كان هذا القريب يتحدّث عن ابنه الصغير الذي عمره سنتان، كيف أنّه يقلّد أهله في كل شيء، من حيث الكلام والسلوك ونحو ذلك.. فتصدى رشاد، وأمسك بطرف الحديث، وبدأ يتفلسف: «إنه لأمر طبيعي أن يقلّد الصغير الكبير، وأن يقلّد الجاهلُ العالم، وأن تقلّد الأمّة الضعيفة المتخلفة، الأمّة القويّة المتقدّمة.. إن التقليد نزعة إنسانيّة أصيلة، بل هي غريزة فطريّة لدى بني البشر، على مستوى الأفراد والجماعات. وكلّ أمّة لا تعي هذه الحقيقة الأزليّة، ولا تعي بالتالي البنية الأساسيّة للمجتمع الإنساني، وعناصر هذه البنية من النواحي النفسية والاجتماعيّة والحضاريّة، إنّما تحكم على نفسها بالتقوقع والتحجّر والفناء.. إنّ من يصرّ على شكل اللباس، الذي استعمله أجداده منذ خدس مئة سنة في عصر التطور المذهل في عالم الألبسة، ومن يصرّ على استعمال مصطلحات متخلفة، كانت تستعمل قبل ألف سنة، برغم تطوّر الحياة، وامتلائها بمصطلحات عصريّة جديدة.. إنّ من يفعل هذا، يدلّل بشكل لا يقبل الجدل على تخلفه العقلي والاجتماعي والحضاري.. بل يدلّ على أنه إنسان معقّد نفسياً، يخاف الانفتاح على حضارات الآخرين، متصوراً أنها ستقضي على شخصيته وكيانه، إذا اندمج

فيها وأفاد من منجزاتها.. وباختصار: إن هذا الطراز من الناس المتزمتين، الذين لا يثقون بأنفسهم، والذين يعانون من مركبات نقص هائلة..

إن هذا الطراز من الناس، إنّما هو عالة على الحضارة الإنسانيّة، بل هو معول هدم في صرحها المشيد.. ولا بدّ للأمّة التي تريد النهوض من غفلتها وتأخرها، من أن تتخلص منه في أسرع وقت ممكن..»

كان رشاد يهدر بلا انقطاع، بينما كان الحاضرون يراقبونه حيناً، وينظر بعضهم إلى بعض حيناً آخر، نظرات مملوءة بالضيق والسأم والقلق والاحتقار، لهذا المخلوق الثرثار، ولا سيّما أن أكثريّة الحاضرين من النوع الذي دعا «إلى التخلص منه في أسرع وقت ممكن..» وحتى الناس، الذي يميلون إلى الإعجاب بحديثه المنمّق، شعروا بالضيق والسأم والنفور.. أمّا الحاج سعيد فكان مطرقاً من الخجل والحيرة.. يحسّ أنّه في محنة حقيقيّة؛ فلا هو يستطيع إيقاف ثرثرة ابنه العاقّ، خشية أن يُغلظ له الولد الكلام أمام الناس.. ولا هو يستطيع الانسحاب من المجلس لاعتبارات تتعلق بالذوق الاجتماعي العام.. فخطرت له فكرة اعتقد أنّها تنقذه وتنقذ جوّ المجلس من سحابة الغثيان التي بسطت أهدابها على نفوس الحاضرين جميعاً.. فرفع أبو صطيف رأسه، ونظر إلى ابنه محمود فناداه بعينه وبهزة معبّرة من رأسه، وحين وقف محمود بجانبه، قال له هامساً في أذنه: «اذهب يا محمود إلى جوار هذا الكلب، واهمس في أذنه بأن يكفّ عن ثرثرة

السخيفة.. وهدّده بأنّك ستسحبه من رجليه وتلقي به خارج البيت إذا لم يصمت..».

وكان رشاد ما يزال يهدر: «هذا مع العلم أن وزر الصامتين على هؤلاء السخفاء المنغلقين المتزمتين، لا يقلّ عن وزر المتزمتين أنفسهم، من حيث إفساد الحياة الاجتماعية، وتأخير ركب الأمّة عن مسايرة الحضارة الإنسانيّة الصاعدة قُدماً نحو..».

وهنا صمت رشاد ليسمع كلام أخيه محمود الذي همسه في أذنه، فارتبك وتلعثم، ونظر في وجوه الحاضرين، وفي وجه أبيه الذي تتراءى فيه علائم الارادة والتصميم.. ولعلّ كون التهديد قد جاء من محمود، هو السبب الأوّل في إسكات رشاد.. فمحمود ضخم الجثّة قويّ البنية كوالده، بينما رشاد ضعيف البنية نسبيّاً، لا يستطيع مقاومة أخيه، ولا بدّ له من أن يأخذ تهديده مأخذ الجدّ.. فاضطر إلى الصمت، ثم تريّث قليلاً، وقام مغادراً المجلس، وهو يردّد بصوت خفيض مسموع: «فَلْيَحْيَ الذراع، ولتسقط كل أنوار الحضارة..» وهنا تنفّس الحاضرون الصعداء، وابتسم الحاج سعيد ابتسامة الظافر، لأنه أنقذ الحاضرين من هذا الكابوس الخانق المقيت..

أما الابن الرابع سمير، الذي يدرس هندسة الديكور في إحدى كليات الفنون الجميلة في إيطاليا، والذي أمضى في دراسته سبع سنوات وما يزال في الصف الثالث.. فانتقاده لأبيه لا يقلّ شراسة وعنفاً عن انتقاد أخيه رشاد، فقد بهرته معالم الحياة في إيطاليا، فما عاد يرى في مجتمعه شيئا صالحاً.. لذا، فهو لا يفتأ يوازن

بين حياة أهله وقومه وبين حياة الشعب الأوروبيّ، فيشتد في النقد والتجريح. . إلاّ أن خوفه من أن يقطع عنه أبوه المال، يلطّف أحياناً من حدّة نقده، ولا سيّما أن والده متشكّك في جدوى دراسته من ناحيته، وفي أنّه يدرس على وجه التأكيد، من ناحية أخرى. . فقد سمع والده بعض الإشاعات التي تتردّد بين آونة وأخرى أن «سمير»، قد علق بغرام فتاة إيطاليّة، فشغلته عن كل شيء، بما في ذلك دراسته. . ولولا أن سميراً يؤكّد لأبيه باستمرار أنه مواظب على الدراسة، ويقسم الأيمان المغلظة، في الرسائل وعند زياراته إلى أسرته في نهاية كل عام دراسيّ، لكان لأبيه موقف آخر، إزاء هذه الاشاعات، وإزاء هذا التلكؤ في الدراسة، إذ يجب أن يكون سمير قد أنهى دراسته منذ عامين، بينما هو الآن في الصف الثالث. .

كان سمير قد اكتسب من مخالطة المجتمع الغربي، شيئاً من أصول اللباقة في النقد، كما اكتسب من خلال المفارقات المحيطة به نوعاً من الحذر والكياسة والأساليب الأفعوانيّة الملتوية في الوصول إلى أهدافه. . لذا، فإنه حين ينتقد أساليب عيش قومه، بما فيهم والده، يرصد ردود الفعل لهذا الانتقاد، فإن وجدها لينة هشّة، تابع هجومه بشكل أقوى قليلاً، ثم يظلّ يتدرّج في قوّة النقد والتجريح، ويراقب عيون السامعين، رقسمات وجوههم، فإن رأى ما ينكره، حوّل مجرى الحديث، أو فسّر بعض عباراته تفسيراً يناسب أمزجة هؤلاء السامعين، أو تظاهر بالحبّ لقومه والإشفاق على حالتهم والحرص على أن يبلغوا أعلى درجات

السموّ والكمال، وأنه «يفضلهم ويفضّل العيشة بينهم، في حقيقة الأمر، على كل اوربّا وحضارتها، برغم بهاء هذه الحضارة ورقي الشعب الذي صنعها، وبرغم تخلف أهله وجهلهم وتدني مستوى تفكيرهم، وتحجر عقولهم وأنماط سلوكهم ولباسهم وحديثهم..» وهو يظهر لوالده في أحاديثه معه، أنّه لا يحظر عليه، ولا يحق له أن يحظر عليه استعمال أيّ مقياس يشاء، سواء أكان هذا المقياس هو الذراع، أو المتر، أو الكيلومتر، لكنه يرى«ضرورة وضع الأمور في مواضعها، أو ليس ذلك من الحكمة!؟» فإذا استعمل والده «الذراع» أمامه، نظر إليه بابتسامة، يذكره فيها بالحكمة..

ولعل مما يخفف مصيبة أبيه به، أنّه بعيد عنه، وأن زياراته السنويّة لبلده وأهله، برغم أنّها تشكل عبئاً على مزاج والده، لا تعدل معشار العبء الذي يشكّله وجود رشاد في البيت، والتقاؤه بأبيه صباح مساء..

أمّا أبناء الحاج سعيد الثلاثة الآخرون: فهيم (طالب الصيدلة) ورياض وعلي، طالبا المرحلة الثانويّة، فمواقفهم متشابهة إلى حدّ ما وتمتاز بالهدوء والرويّة في معاملة والدهم، والنصح اللطيف بينهم وبينه، والتذكير اللبق أمام الآخرين، بالتلميح أو الإشارة الدالّة، أو النظرة المعبرة.. ولعلّ إحساسهم بهيبة أبيهم الذي يرعاهم وينفق عليهم في البيت، ويهيمن على جوّ الأسرة بشكل عام.. لعلّ هذا الإحساس، جعلهم أكثر تهذيباً في النقد من بعض إخوتهم الآخرين، ولا سيّما أمام الغرباء.. على الرغم من قوّة إحساسهم بضرورة مواكبة الحياة العصريّة، وضرورة مسايرة

الذوق الاجتماعي المثقّف المتمدّن..

وإذا كان الثلاثة هؤلاء يحترمون والدهم، فإن «رياض» يضيف إلى الاحترام شيئاً من البرّ والحبّ ولين الجانب، متأثراً في ذلك بأجواء المسجد الذي يتردّد إليه بين آونة وأخرى لأداء الصلوات، أو الالتقاء ببعض الأصدقاء ممّن هم على شاكلته..

إن محاصرة «الذراع» داخل فم الحاج سعيد وداخل دماغه، إنما هي عمل أسريّ بحت، يقوم به أبناؤه بالذات.. وهذا هو سرّ بلائه.. ولولا ذلك لما اكترث بنقد إنسان في الدنيا.. فهو رجل بالغ عاقل رشيد يعرف ما يقول وما يفعل، وليس لأحد حقّ في أن يفرض عليه نمطاً معيناً من السلوك أو الحديث أو التفكير.. كما أنه ليس أقلّ من سواه فهماً أو مكانة اجتماعيّة.. لذا فليس لأحد أن يعلّمه أصول الحديث أو التفكير أو التعامل مع الناس.. إن مشكلته نابعة من داخل بيته، وهي تحاصره داخل بيته وخارجه.. وهذه هي المأساة.. وإذا كانت الكوابح التي بدأ أبو صطيف يكبح بها اندفاعات حديثه، قد بدأت تفعل فعلها، في التخفيف من استعمال بعض تراكيبه ومصطلحاته اللغويّة أو التجاريّة أو الاجتماعية العامّة، ولا سيّما في محاصرة «ذراعه» الحبيب.. فإنّ للطبع والإلف والعادة قوّة لا يجوز إغفالها..

كان مرّة يجلس في مقهى مع مجموعة من الأصدقاء، بين تاجر ومحام وسياسيّ قديم وزعيم قبلّي.. وغيرهم.. فطُرحت مسألة تتعلق ببعض الأوضاع السياسيّة الراهنة في المنطقة، فسئل السياسيّ القديم عن رأيه فيها، فقال: إنها مسألة معقّدة، وفيها

خيوط كثيرة متشابكة، تصعب معرفة أبعادها بسهولة.. فقال أبو صطيف على البديهة، وهو مطمئن إلى أن المجلس خالٍ من أولاده: ولماذا تصعب معرفة أبعادها بسهولة يا أستاذ؟

قال السياسي القديم: لأن فيها خيوطاً كثيرة متشابكة، كما قلت قبل قليل.

قال أبو صطيف ببساطة: ومتى كان تشابك الخيوط يولّد مشكلة يا أستاذ؟ أحضروها إليّ غداً في المحلّ، لأفرز لكم خيوطها، وأقيسها لكم بطولها الحقيقي، دون أن يضيع عليكم ذراع واحد..

ضحك الحاضرون لهذا الكلام، وأكثرهم يحسب أن الحاج سعيد قال هذا من قبيل المداعبة والإطراف. وبعضهم رأى أن للرجل أسلوباً مميَّزاً ومزاجاً مستقلاً وشخصيّة متفرّدة أصيلة، وليس واجباً عليه أن يُخضع أسلوبه ومزاجه وشخصيته لأمزجة الآخرين، أو أن يكون نسخة مكررة عن أيّة شخصية من شخصيات الآخرين.

أما أبو صطيف، فقد أحسّ بنشوة غريبة تسري في أعماقه، فقد مارس إدمانه، وحقّق ذاته، بعيداً عن دائرة الحصار..

ثم مالبث أن تنهّد بأسىً عميق حين تذكر أنه سيعود إلى البيت..

دموع ضرغام

وقف الناس يتصايحون على الشاطيء، وهم يراقبون رجلاً يتخبط بين الأمواج صائحاً: أنقذوني.. أنقذوني.. النجدة.. إني أغرق.. أنقذوني..

لم يكن فيهم من يستطيع إنقاذ الغريق.. حتى الذي يعرفون مبادئ السباحة لاتؤهلهم معرفتهم لإنقاذ الرجل المتقلب بين الأمواج المزبدة.. هُرع الجميع إلى ضرغام لما يسمعون عن مهارته في السباحة وعن بطولاته الخارقة، صائحين: النجدة الرجل ياضرغام، إنه يغرق..

كان ضرغام لاهياً عن الجميع، مستغرقاً في قراءة قصيدة طويلة لامرئ القيس، يسمّونها «المعلّقة».. كان يقرؤها بصوت عالٍ دون أن ينتبه إلى ما يجري حوله.. وكلما ارتفعت صرخات الاستغاثة، رفع صوته أكثر فأكثر في القراءة..

كان ضرغام قد حضر قبل ساعة مع أخيه إلى شاطى البحر، ومعهما زورق صغير للتنزه به في البحر.. وبعد أن تنزها قليلاً على بعد مئات الأمتار من الشاطئ، عادا فوضعا الزورق على الرمل، وجلس ضرغام باسترخاء، يسمع أخاه معلقة امرئ القيس اللاميّة المشهورة، يقرؤها بصوت جهوري ونبرات فخمة، من ديوان الشاعر.. ولم يشأ أخوه أن يقطع عليه هذه المتعة الأدبية، فتسلل برفق إلى الشاطئ، بسروال السباحة، وغمر جسمه في

الماء، وهو ينصت إلى أخيه المستغرق في تلاوة القصيدة..

انتبه ضرغام إلى ابتعاد أخيه عنه قليلاً، ووجوده داخل الماء على الشاطئ، فرفع صوته إلى الحدّ الذي يُسمع فيه أخاه كل كلمة من كلمات القصيدة بشكل واضح.. وظلّ ذاهلاً عن نفسه وعن أخيه مستمتعا بالقراءة..

كان الزورق على بعد متر من ضرغام، وفيه المجاديف وحبل طويل وبعض المتاع الخفيف، مثل ألبسة السباحة، وبعض الفواكه، وزجاجات ماء عذب..

وحين بدأ الناس يتصايحون، ويطلبون انجاد الغريق، كان ضرغام مايزال مستغرقاً في القراءة.. وكان أخوه يصارع الأمواج بين الحياة والموت..

قالت امرأة بحرقة وغيظ: ما بك أيها الرجل؟ ألا تسمع؟ أنقذ الغريق..

لم ينتبه إليها وظلّ يقرأ بصوت مرتفع:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرماً فأجملي

قالت المرأة بألم ولهفة: قبحك الله..

اقترب منه شاب ووضع يده على الكتاب المفتوح، ليمنعه من القراءة، وصاح به: انظر هناك، ألا ترى الرجل يغرق؟

نظر أمامه حيث أشار الشاب، فإذا الذي يصارع الموج هو أخوه، فرفع يد الشاب عن صفحات الكتاب بلا مبالاة، وتابع بصوت عالٍ:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

مكرّ مفر . .

هزّه رجل بعنف من كتفه، وهو يصيح في وجهه: لعنة الله على المكرّ والمفرّ، انقذ الغريق أيّها الرجل . .

تابع دون اهتمام: . . مقبل مدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من علِ

قال الرجل، وهو يمسك بالكتاب بقوة:

هل لك ثأر عند هذا الإنسان الذي يغرق ياضرغام؟

قال ضرغام باستياء لانقطاع متعته الفنيّة، وبكلمات فاترة:

ـ لا . . ثأر ماذا!؟ إنه أخي

قال الرجل بغيظ: أخوك؟ وتتركه يموت يانذل؟

قال ضرغام باستياء مهذّب: أرجو عدم تجاوز حدود اللياقة . .

وحاول أن يتابع القراءة إلاّ أن الرجل ظلّ ممسكاً بطرف الكتاب بقوة . . وهو يقول لضرغام: ستكون مجرماً إذا لم تتحرك لانقاذ الغريق.

قال ضرغام بجفاف: المجرم هو من يتدخل في شؤون الناس، ويقطع عليهم فترات متعتهم وراحتهم . .

حاول متابعة القراءة إلاّ أن الرجل ظلّ ممسكاً بالكتاب.

تدخل رجل آخر، قائلاً: إذا لم تتحرك لإنقاذ الغريق، فاسمح لنا باستخدام الزورق لنحاول انقاذه.

obeikandl.com

قال ضرغام بجفاف: هذا الزورق للنزهة لا لإنقاذ الغرقى.

قال الرجل نفسه (الثاني): ولكن يمكن استعماله لانقاذ الغريق.

قال ضرغام بحدّة: لن أسمح لأحد بلمسه.

قال الرجل الأول: بل سنستعمله.

قال ضرغام: إن استعماله دون إذن صاحبه يعتبر سطواً على ممتلكات الآخرين، وهذا جرم يعاقب عليه القانون.. وحاول متابعة القراءة فلم يمكّنه الرجل الممسك بالكتاب..

قالت المرأة: إذن اسمح لنا بأن نلقي له هذا الحبل الطويل الموجود في الزورق، لعله يتمسك به فنشده إلى الشاطئ.

قال ضرغام: لا.. إني أحتفظ بهذا الحبل للضرورات.

ضحك الرجل الأول ساخراً وقال: أيّة ضرورة ألعن من غرق أخيك!؟

قال ضرغام: لو استُعمل الآن وأصابه التلف، أو أفلت من بين أيديكم وضاع في البحر، ثم تعرضت أنا للغرق ذات يوم، ولم يجد الناس حبلاً ينقذونني به، فكيف سيكون مصيري..!؟

قالت المرأة: سيكون مصيرك اللعنة في الدنيا والآخرة.

قال ضرغام بفتور: لو لم تكوني امرأة، لقلت لك: الزمي أدبك.

قالت المرأة ساخرة: الحمد لله على أنك لم تقلها..

حاول متابعة القراءة، ولكن يد الرجل ظلت ممسكة بالكتاب،

فبدأ يقرأ من ذاكرته، ويخطيء في ترتيب أبيات القصيدة، وهو يشير بيده متجها نحو أخيه:

له أيطلا ظبي وســـاقـا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

قالت امرأة ثانية: دع هذا الهذيان وسارع إلى انقاذ أخيك ياأبله.

نظر إليها بجفاء وقال: أرجو ألا يتدخل أحد بيني وبين أخي، وألا يعلّمني أحد كيفية أداء واجبي تجاه أخي.

قال رجل ثالث يخاطب الحاضرين: يا قوم.. يا قوم.. دعوا هذا الإنسان وشأنه.. فلعله يعرف ما يريد.. فإذا كان بينكم من يستطيع انقاذ الغريق فليبادر إلى هذا العمل الإنساني.. وإذا كان بينكم من هو أقرب إلى الغريق من أخيه، فليغامر بنفسه لإنقاذه.. وإلاّ فاتركوا الرجل يتصرف بطريقته الخاصّة، فيبدو أن لديه قناعات معيّنة في مجال انقاذ أخيه.. فادعوا لاخيه بالنجاة، والزموا الهدوء لنرى ما سيفعله هو..

نظر ضرغام إلى المتكلم بابتسامة رضى، وقال: أنت إنسان اجتماعي فعلاً، ومتحضّر وتعرف ما يجب وما لا يجب.. ثم التفت ضرغام إلى الرجل الممسك بالكتاب وقال له باعتداد: اسمعت ما قال هذا الرجل الفاضل.. اترك كتابي وسترى ماأفعل..

قال الرجل الممسك بالكتاب: وماذا ستفعل؟ قبحك الله.. خذ كتابك واذهب إلى جهنّم. وتابع ضرغام بجديّة:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي   بسهميك في أعشار قلب معطّل

فقال الرجل: عطل الله لسانك. قال ضرغام بجفاء: الزم حدود أدبك.. ودعني أتصرف، وسترى ما أفعل.. ثم ظل ممسكاً بالكتاب بيده المرخاة إلى جانبه، وهو يقرأ من ذاكرته؛ رافعاً صوته، متجهاً نحو أخيه، مشيراً بيده يمنة ويسرة، باعتبار ذلك فناً من فنون إلقاء الشعر:

ترى بعر الآرام في عرصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفل

قالت امرأة: فلفل يحرق عينيك يا وغد. نظر إليها شزراً، ثم تابع:

كأني غداة البين يوم ترحلوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل

قالت المرأة بصوت مسموع: حنظل يملأ حلقك يا جبان.

نظر إليها نظرة زوراء، وقال: دعيني أؤدي واجبي تجاه أخي يا امرأة.. وإلاّ.. قالت ساخرة: وإلاّ ماذا ياصنديد؟

قال متحدياً: وإلاّ اعتبرتك مسؤولة عن غرقه.

قالت بدهشة وذعر: ماذا تقول؟ مسؤولة عن غرقه!؟

قال بهدوء: طبعاً.. إذا قاطعتني، ولم تدعي لي فرصة اسماع أخي القصيدة، فهذا يعني أنك تضيعين عليّ فرصة إنقاذه، وتكونين بالتالي، مسؤولة قانوناً عن التسبب في قتل إنسان.

قالت المرأة بدهشة: وهل ستنقذه بهذا الهذيان؟

قال باستياء: احترمي كرامة الأدب يا أمرأة، ولا تسميه

هذياناً.. الأدب روح الأمة، ومظهر رقيها، ومجلى حضارتها، ومن لا تؤثر فيه الكلمة، لا يؤثر فيه شيء في الدنيا، لأنه إنسان تافه لا خير فيه، ولا ترجى منه فائدة للحياة الإنسانيّة.

قال أحد الرجال: وهل تعتقد يا سيد ضرغام أن هذه القصيدة ستؤدي في النهاية إلى إنقاذ حياة أخيك؟

قال ضرغام بثقة: لا شيء أجدى من الأدب في انقاذ حياة الناس أفراداً ومجتمعات.. الأدب ينقذ الأمم من الغرق في بحار الجهل والضلال.

قال رجل ثانٍ بابتسامة ساخرة: فتابع إذن قراءة القصيدة وعجّل قبل فوات الأوانِ.

قال ضرغام محاولاً تذكّر بعض الأبيات دون أن يخطر في باله شيء منها بشكل سريع: يبدو... يبدو.. يبدو أن الذاكرة بدأت تخونني. لقد أفسدتم ذاكرتي بكثرة صياحكم ومقاطعتكم لي وتدخلكم بيني وبين أخي.. أجل لقد أفسدتم ذاكرتي، فلم أعد استطيع قراءة شيء من القصيدة..

قال أحد الرجال: ويلك، أليس الكتاب في يدك؟

قال ضرغام متأسفاً: لقد منعني هذا الرجل ـ وأشار بيده إلى من كان ممسكاً بالكتاب ـ من إتمام قراءة القصيدة من الكتاب، فلجأت إلى ذاكرتي، فأفسدتموها لي بكثرة المقاطعة والصياح والكلام الفارغ وادعائكم الحرص على حياة أخي أكثر مني.. فماذا أفعل الآن؟

قال رجل: عد إلى قراءة القصيدة في الكتاب من حيث وصلت، قبل أن يمنعك الرجل الذي بجانبك.

قال ضرغام: لقد نسيت البيت الذي توقفت عنده

قالت امرأة: أعد قراءة القصيدة من أولها.

قال ضرغام: لم يعد الوقت يتسع لقراءة القصيدة من أولها

قال رجل: ولكنّ أخاك يغرق، ولا بدّ من فعل شيء.

قال ضرغام بهدوء: أولاً أشكرك على اهتمامك بحياة أخي، برغم أن هذا تدخل في شأن خاص لا علاقة لك به.

قال الرجل ساخراً: وثانياً!؟

قال ضرغام: ثانياً إن أخي تصرف تصرفاً شخصياً وبملء حريته، حين غمس نفسه في البحر وهو ليس ماهراً جدا في السباحة.. وعليه أن يتحمل تبعة أفعاله بكل رجولة وعزم وإباء.

قال الرجل ساخراً: وثالثاً!؟

قال ضرغام: ليس عندي «ثالثاً»

قال رجل ثانٍ: وماذا ستفعل الآن؟

قال ضرغام: سأحاول أن أفعل شيئاً، لا بدّ من المحاولة، وإن كانت الفرصة الأكيدة للنجاة قد ضاعت، أضعتموها بصياحكم وثرثرتكم، ومقاطعاتكم المستمرة لي.. لا بدّ من المحاولة، ومن تكرار المحاولة، ولا مجال لليأس، فاليأس سرّ شقاء الأفراد والأمم، وصدق من قال: «لا حياة مع اليأس ولا يأس مع

الحياة..» وسأبذل كل ما في وسعي لنجدة أخي.. أخي الحبيب الغالي.. ثم صاح بصوت عال مخاطباً أخاه: لا تخف ياأخي، ولا تيأس، ولا تستسلم للأمواَج العاتية، فنحن معك.. قلوبنا معك، وسنفديك بالغالي والرخيص.. فانتبه إليّ واسمعني جيّداً.. هل أصغيت إليّ؟ حسناً.. اسمع اذن، فقد تواردت الأبيات إلى ذهني الآن كالغيث المنهمر، اسمع، ولا تهتم لترتيب الأبيات، فالمهم المضمون، المهم روح الكلمة، أما الشكليات فلا يهتم بها أصحاب النفوس العظيمة.. اسمع يا أخي اسمع:

كأن الثريّا عُلقت في مصامها بأمراس كتّان إلى صمّ جندل

صاح رجل ساخراً: الله أكبر.. ماهذه الروعة؟ وهمست امرأة: اصمّ الله أذنيك، وجندلك في فلاة لا تجد فيها جرعة ماء. قال ضرغام، متشاغلاً عن كلام الرجل: انظروا.. انظروا إلى أخي. لقد دبّ فيه عزم جديد.. لقد تفجّرت فيه إرادة الحياة، فبدأ يصارع الموج بثبات وإصرار.. حسناً فلأ تابع:

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـيّ بأنـواع الهـموم لـيبتـلي

فقلت له..

صاح رجل بقوة: يا سلام!

قال ضرغام محاولاً المتابعة: فقلت له.. فقلت له.. ثم التفت إلى الرجل الذي صاح، وقال معاتباً: سامحك الله، لقد أنسيتني ماذا قلت له.. بلى.. بلى.. تذكرت:

فـقـلـت له لما تـمـّطـى بـصلـبه وأردف أعجـازاً ونـاء بكـلـكـل

ألا أيـها الليـل الطـويل ألا انجل   يصبح وما الإصباح منك بأمثل

ثم قطع ضرغم انشاده وأشار إلى أخيه بفرح غامر قائلاً:

انظروا.. انظروا، كيف بدأ يخبط الموج بذراعيه الفتيّين وكأنهما ذراعا مارد عملاق.. اضرب يا أخي.. اضرب الموج.. إن كل ضربة توجهها بزنديك القويين الطاهرين، ستكتب بحروف من نور في تاريخ الخالدين.. إن كل موجة تقصم ظهرها من هذه الأمواج الشرسة العاتية، ستدقّ إسفينا في نعش الظلم والظالمين.. اضرب يا أخي اضرب.. ولك علي أن أظلّ معك حتى النهاية:

فيـالـك من ليـل كـأن نجومه   بكل مغار الفتل شدّت بيذبل

كـأن ثبيراً في عـرانـين وبلـه   كـبير أنـاس فـي بجاد مزمّـل

ثم أشار إلى أخيه: انظروا.. إن ملحمة حقيقيّة تصنع في هذه اللحظات الخالدة.. ملحمة تسطرها الأذرع العارية والصدر الأعزل، في مواجهة أشرس أنواع الموج وأعتاها..

وتابع الانشاد:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجبا من كورها المتحمّل

ثم أشار إلى اخيه بابتهاج، قائلاً: انظروا.. انظروا أثر الكلمات الحيّة في النفوس الأبيّة.. لقد بدأ أخي يضرب الموج برأسه أيضاً.. لم تكف يداه ورجلاه وكتفاه.. لقد بدأ يُعمل رأسه الآن.. إنه جيش كامل.. وحده جيش كامل عرمرم..

قال رجل بفتور: ولكنّ أخاك يا ضرغام في لحظاته الأخيرة، والأمواج هي التي بدأت تلطم رأسه، بعد أن ضعف جسمه،

وانهارت مقاومته، ولم يعد قادراً على رفع رأسه فوق مستوى الموج..

قال ضرغام بحدّة: اسكت أيها الرجل، أتعرف أخي أكثر منّي؟

قال الرجل: لا.. لكن..

قال ضرغام بحدة: ليس في هذه الأمور «لكن»، هذه قضيّة داخليّة بيني وبين أخي، ولا يحق لأحد التدخل فيها.

قال رجل آخر: ولِمَ تقول لنا إذن بين فينة وأخرى: انظروا... انظروا..

قال ضرغام باعتداد: لكي تروا بأم أعينكم أيّ ضرب من ضروب البطولة تمتاز به أسرتنا الماجدة.. لكي تنقلوا إلى العالم كله أخبار هذه الملحمة الأسطوريّة التي يسجّلها فرد واحد من أفراد العائلة الأبيّة، العريقة في شجاعتها ومقارعتها للشدائد والأهوال.. إن هذا الرجل الذي ترونه أمامكم، سليل آباء عظام، سطروا ملاحم المجد بحروف من نور على جبين التاريخ..

قال رجل: لقد سمعنا ورأينا وسننقل إلى العالم ما سمعناه ورأيناه، فهيا بنا أيها الناس لننصرف، وندع هذه القضيّة الداخليّة لأصحاب الشأن كي يحلّوها بطريقتهم الخاصّة.

قال ضرغام بقوة: لا.. لا تذهبوا حتى تروا النهاية بأعينكم، وتكونوا شهوداً عدولاً على كل ما ترون.. كما أن أخي يأنس برؤيتكم متجمهرين على الشاطيء، فيشتد عزمه ويقوى على

مصارعة الموج.. صحيح أنه ليس بحاجة إليكم، إلاّ أنّ وجودكم أمام عينيه يمدّه بتأييد معنويّ ونفسيّ كبير..

قال رجل: إذا كان الأمر كذلك، فإننا نشدّ على يده بأيدينا، ونقف إلى جانبه بحزم..

قال ضرغام مستبشرا: بارك الله بكم.. هكذا يكون الدعم والتأييد.. ثم صاح على أخيه قائلاً: أبشر ياأخي أبشر.. هاهي ذي جموع المتفرجين تشدّ على يديك، وتقف إلى جانبك بحزم.. ها هي ذي جموع المتفرجين تشدّ على يديك، وتقف إلى جانبك بحزم.. وأصغ الآن جيّداً إلى ما أقرأ عليك من خالد الشعر ورفيع البيان:

فظلّ العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا أمرأ القيس فانزل

قاطعته امرأة صائحة: ويلك يا رجل، لقد غرق أخوك.. اختفى ولم يعد يظهر من جسمه شيء، وأنت تهذي: (مال الغبيط.. وعقرت بعيري..)!؟ عقرك الله وأراح العالم منك.. نظر إليها بغضب وقال: لعنة الله عليك، لقد ضربت الضربة القاضية في إفساد مهمتي، ومنعتني في اللحظة الأخيرة من انقاذ أخي..

قال رجل: ولكنها نبهتك مجرد تنبيه إلى اختفاء أخيك ياضرغام، وحين قاطعتك كان أخوك قد اختفى وانتهى أمره.

قال ضرغام بغضب: ومن طلب منها أن تنبهني؟ وما الذي

obeikandl.com

أجبرها على حشر أنفها في قضيّة داخليّة خاصّة بيني وبين أخي؟ ثم هل هي أعرف مني بأخي، ومتى يختفي ومتى يظهر..؟ انها السبب.. هي السبب في غرق أخي.. منعتني من إنقاذه.. ارتكبت جريمة شنيعة في المشاركة بقتل نفس بريئة..

قال رجل: تقول: «المشاركة»، وهذا يعني أنها ليست وحدها..

قال ضرغام بجديّة وانفعال: طبعاً ليست وحدها.. إنّما هي صاحبة الضربة الأخيرة.. أما شركاؤها فهم أنتم جميعا.. جميعاً بلا استثناء

قال رجل: ويلك وماذا فعلنا؟

قال ضرغام: لكل منكم قدر معيّن من المشاركة في صنع الجريمة.. أناس شركاء بصياحهم، وآخرون بثرثرتهم الفارغة، وآخرون بادعائهم الحرص الكاذب على حياة أخي.. وهذا الرجل أمسك بكتابي فمنعني من متابعة واجبي المقدّس.. وتلك المرأة قاطعتني مرات عدّة أثناء القراءة.. وهذا الرجل سألني أسئلة فارغة أثناء عملي فأضاع علي قسطاً كبيراً من وقتي. وذاك صاح في وجهي، والآخر هزّني من كتفي، والآخر شتمني، وهذا أثار أعصابي في محاولة السطو على زورقي، وذاك غاظني في محاولة الاستيلاء على الحبل.. و.. و..كلكم شركاء في قتل أخي.. ولمّا كنتم تمثلون البلدة كلها، فالبلدة كلها مسؤولة عن قتل أخي.. أخي الحبيب.. رمز البطولة والفداء.. آه يا أخي.. آه يا أعز أخٍ في الدنيا.. أفديك بروحي ودمي.. أفديك بكل غالٍ ونفيس..

لقد قتلك المجرمون يا أخي.. قتلوك.. قتلوك.. آه ياللكارثة.. ياللفجيعة. .إهيءْ.. إهيءْ إهيءْ.. ياضيعة الرجال..

أجهش ضرغام في بكاء مرير، بينما الحاضرون يتبادلون فيما بينهم نظرات مملوءة بالدهشة والاستغراب

قال رجل بأسىً: اصبر يا ضرغام وخذ حسبك الله.. وتجلّد، فالبكاء لا يرد ضائعاً، ولا سيّما أنك من أسرة عريقة مشهورة بالبطولة والفداء والصبر في الشدائد والأهوال..

قال ضرغام: وكيف أستطيع الصبر على هذه الفجيعة المرّة.. رأيت أخي يموت أمام عيني ومنعت من إنقاذه.. فكيف أصبر.. كيف؟ إهِيءْ إهِيءْ.. إهِيءْ..

قال رجل آخر: مارأيك يا ضرغام في أن نحاول البحث عن الجثة وإخراجها من الماء، قبل أن تأكلها الأسماك؟

قال ضرغام: إن الشاة لا يهمها السلخ بعد ذبحها.. ولكن حاولوا.. يجب أن تحاولوا.. إنّ جثّة أخي أعزّ عندي من الدنيا وما فيها.. إنّها أعزّ من نفسي ومالي.. آه، يجب أن أنقذ جثتك يا أخي بأي ثمن...

قال رجل آخر يخاطب من حوله من الرجال: حسن.. لقد وافق ضرغام على إخراج جثة أخيه من الماء.. هيّا يا رجال.. كل من يجيد السباحة منكم عليه أن يستعدّ.. وسوف يركب اثنان منا في الزورق والآخرون يسبحون من حوله..

صاح ضرغام بعنف وهو ينظر إلى الرجل بعينين محمرتين:

ماذا تقول؟ تركبون الزورق؟ أهو مال أبيك يا رجل؟ هل ورثته عن جدّك؟ أتريد أن تتلف زورقي بعد أن اشتركت في قتل أخي..؟ انصرف.. انصرف عنيّ يا مجرم، وإلاّ علمتك كيف تكون الجسارة على أموال الناس...آه يا أخي.. قتلوك يا أعز إنسان في الدنيا.. أفديك بنفسي يا أخي.. إهيءْ.. إهيءْ.. إهيءْ.. سأبكيك كما بكت الخنساء أخاها صخراً:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

وسأرثيك كما رثى دريد بن الصمّة أخاه عبد الله:

فإن يك عبد الله خلى مكانه   فما كان وقافاً ولا طائش اليد

وسأبكيك كما بكى متمم بن نويرة أخاه مالكاً:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً   لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

كان ضرغام يبكي بحرقة شديدة وبدموع حارة غزيرة..

وكان الحاضرون يتبادلون النظرات الحائرة فيما بينهم.. وليس بينهم من يعلم يقيناً من أين جاء ضرغام بكل هذه الدموع..

obeikandi.com

obeikandl.com

حكاية قرية

«المذعورة» قرية سوريّة، تقع قرب الحدود التركيّة. وهي واسعة المساحة كثيرة السكان، بالنسبة إلى القرى المجاورة، إذ يبلغ عدد سكانها حوالي خمسة آلاف إنسان، بينما لا يزيد عدد أيّة قرية أخرى من قرى المنطقة عن ألفي إنسان. ولعلّ السبب في ذلك هو خصوبة أرض المذعورة، وكثرة مياهها العذبة، فضلاً عن كونها أقدم قرى المنطقة وأكثرها شهرة. يضاف إلى هذا كله، ما عُرف به رجال القرية منذ زمن بعيد، من حميّة وشجاعة، ومن إقدام عجيب على الموت، عندما تتعرض القرية لخطر، أو يداهمها عدوّ، لا سيّما من قبل جارتها «سَطّاية»، الواقعة داخل الحدود التركيّة، والتي كانت سوريّة في الأصل، إلاّ أنها ضمّت إلى الأراضي التركية، في مرحلة من مراحل النزاعات الحدوديّة، التي كانت تحدث بين البلدين أحياناً منذ سنوات طويلة خلت..

لقد كان النزاع بين القريتين مستحكماً، وكانت إغارات كلّ منهما على الأخرى مستمرة لا تنقطع.. وكان أقصى ما يعتز به الرجل من أهل كل منهما، هو عدد المعارك التي خاضها، والغارات التي شنّها ضدّ رجال القرية الأخرى..

كان الاسم القديم لقرية «المذعورة»، هو «الهجّامة»، وقد اكتسبت هذا الاسم من كثرة الهجمات التي يشنّها رجالها ضدّ أعدائهم، وقد توارث أهل القرية هذا الاسم جيلاً عن جيل.

وهناك قول يردده أهل القرية، مفاده أن اسم «الهجّامة»، هو بالأصل، اسم قديم لأسرة كانت تحكم القرية، وكان رجال هذه الأسرة، يكثرون من الحروب والهجمات، ويجهّزون حملات إغارة ضدّ أعدائهم من أموالهم الخاصّة، بكل ما تحتاجه الحروب من خيل وسلاح وطعام..

كان سكان القرية ينتمون إلى قبائل متعدّدة، إلاّ أنهم كانوا ينتمون إلى دين واحد، بأكثريتهم الساحقة، سوى بيوت قليلة متناثرة هنا وهناك، كانت تنتمي إلى ديانات أخرى، وهذه البيوت لا تجاوز في حدها الأقصى عُشر سكان القرية.. إلاّ أن نصف هذه البيوت، ذات الديانة الغريبة، كان ينتمي إلى ديانة شاذة موغلة في الشذوذ، إذ يعبد أبناؤها خليطة عجيبة من المخلوقات، أهمها الشمس والزُّهْرة، وعجل السامريّ، وبعض الصالحين من البشر..

وكان أتباع هذه الملّة الشاذّة، منبوذين من قبل سكان القرية جميعاً، لنذالتهم وسوء طباعهم وانحطاط أخلاقهم. وقد أطلق عليهم أهل القرية اسم «الملاعين»، لخسّتهم، وتلوّنهم، ونفاقهم، وغدرهم المستمرّ بأهل القرية..

وقد أثّر احتقار أهل القرية للملاعين، وكرههم إياهم، تأثيراً قوياً في نفوس هؤلاء الملاعين، فبدأوا يتجمعون، ويتماسكون، ويعطف بعضهم على بعض ويتقاربون في المنازل، حتي صار لهم مع الزمن، حيّ مستقلّ في القرية، يسمّى حيّ «الملاعين»..

وكان بعض أهل القرية يشفق عليهم، ويقدّم لهم شيئاً من المال

والطعام. وبعض آخر يستخدم أعداداً من رجالهم ونسائهم للخدمة وزراعة الأرض لقاء أجور زهيدة.. كما أن بعض السفهاء من شباب القرية، لم يكونوا يتورعون عن العبث بفتياتهم، ولاسيّما اللواتي يعملن في المنازل. وما كان «الملاعين» يتحرجون من مثل هذا العبث بفتياتهم، إذ لا يقيمون للعرض وزناً، ولا يجدون في انتهاكه غضاضة.. بل كثيراً ما تطوع بعضهم، لتأجير بناته، لقاء مال معيّن، فيضرب عصفورين بحجر واحد، يرتاح من عبء إطعامهنّ، ويجني من ورائهن مالاً.. وماذا يخسر من وراء ذلك؟.. لا شيء! ولقد أدرك عدد من وجهاء «المذعورة» وسادتها خطر هؤلاء الملاعين على أهل القرية ومستقبلها ومصيرها، لما في جبلّتهم من الفساد والانحطاط، وما في نفوسهم من الخسّة والغدر، ولا سيّما بعد أن تبيّن أن لهم أصابع وراء كثير من عمليات التسلل والتخريب، التي نفذها بعض أعدائهم من قرية «السطاية»، في قريتهم المذعورة، وبعدما تبيّن، أن قتل بعض وجهاء القرية، على أيدي رجال «السطاية» لم يكن ليتمّ، لولا قيام «الملاعين» بدلالة الأعداء على بيوت رجال القرية، وقبض الثمن..

وبرغم اتّضاح خطر «الملاعين»، وإحساس الكثيرين من أهل القرية بهذا الخطر، لم يكن أحد يفكّر جديّا، بكيفيّة التخلص منه. والذين فكروا بهذا الأمر تفكيراً عرضياً بسيطاً، لم يجدوا من يصغي إليهم، أو يكترث بكلامهم، بل إن بعض المتنفذين من سكان القرية، كانوا يتبنّون «الملاعين»، ويدافعون عنهم، وذلك

خدمة للمصالح التي يجنيها هؤلاء المتنفذون من وراء الملاعين، إذ يستخدمونهم في الزراعة والصناعة وخدمة البيوت بأرخص الأسعار، لذا لم يكونوا مستعدّين للتضحية بهذه الكاسب..

وكان أعظم مكر مكره هؤلاء «الملاعين»، هو أن بعض خبثائهم، اشتركوا مع مجموعة من رجال القرية، أكثرهم من ذوي الملل الغريبة، بتشكيل جمعيّة عجيبة سمّوها جمعيّة «إحياء القرية». وكان بعض الأذكياء من رجال قرية «السطاية» وراء هذا الاقتراح، لرفع مكانة «الملاعين»، الذين كانوا يتآمرون مع أهل السطاية ضدّ أبناء قريتهم.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى، كانت الشعارات التي رفعتها جمعيّة «إحياء القرية»، ضبابيّة وغائمة، وخاضعة لتفسيرات كثيرة، مما يؤدّي إلى بلبلة نفوس أهل القرية وعقولهم، وزعزعة أفكارهم القديمة، وتحطيم القيم التي توارثوها أباً عن جدّ..

لقد كانت جمعيّة «إحياء القرية» ضربة معلّم ـ كما يتهامس رجالها فيما بينهم ـ.. وكثيراً ما كان أهل القرية يتساءلون باستغراب: ما معنى إحياء القرية؟ وهل هي ميتة فيحييها هؤلاء؟ ثم ما الذي يريدون إحياءه منها بالتحديد؟ وكيف سيحيونه؟ وكان بعض هؤلاء المتسائلين يحظى بإجابات غامضة على بعض تساؤلاته، وبعضهم لا يحظى بشيء. إلاّ أن الذي بدأ يتكشف بالتدريج، ويعلمه أبناء القرية، هو أن عمليّة الإحياء، كانت مقصودة، وكانت حقيقيّة.. أي أن هناك مساعي جادّة لإحياء حقيقي.. ولكن لمن؟ إنّها لهؤلاء الضعاف المهملين، أتباع

الديانات الغريبة، ولا سيّما أتباع الديانة الشاذّة «الملاعين»، وذلك بإماتة المُثل والأخلاق القديمة التي توارثها أبناء القرية، والتي كانت السبب الرئيسي في نبذ أتباع الديانات الغريبة وعدم الاكتراث بهم.. وبمعنى أدقّ: كان الإحياء المطلوب، هو إحياء الضعاف والمنبوذين والشواذ، وهذا لا يتمّ إلاّ بإماتة أكثرية أهل القرية، من خلال إماتة مثلهم وقيمهم وأخلاقهم، النابعة من ديانتهم التي توارثوهاً جيلاً عن جيل. لكن متى اكتشف الناس هذه الحقيقة؟ بعد أن قطع رجال «الإحياء» شوطاً بعيداً في مخططهم الماكر، وخدعوا أعداداً كبيرة من رجال القرية، فانضمّوا إليهم، وربطوا مصيرهم بمصيرهم، وصاروا يردّدون أقوالهم بغباء دون أن يدركوا الدوافع الكامنة وراءها..

ومرت الأيام، ورجال (الإحياء) يتغلغلون شيئاً فشيئاً، في مواقع التأثير والنفوذ في القرية، و«الملاعين» يعززون مواقعهم باستمرار، من خلال الخداع والتضليل والتآمر والمكر.. حتى أفاقت القرية ذات يوم، فإذا الملاعين هم السادة المتنفذون فيها، إلاّ أنهم لم يجرؤوا على كشف وجههم الحقيقي، برغم أن أكثر سكان القرية كانوا يعلمون الحقيقة، ويدركون أن جمعيّة «إحياء القرية» إنما هي مطيّة للملاعين يركبونها لتنفيذ مآربهم، وستار يخفون خلفه وجههم الكريه الذي يحتقره الجميع وينفرون منه..

ثم أفاقت القرية في صبيحة يوم آخر، فإذا «الملاعين» هم زعماء القرية وسادتها، دون مواربة أو خفاء.. فلقد صار لديهم من القوّة، ما يمكّنهم من كشف وجههم، متحدّين الجميع. إلاّ

أنهم قبل أن يكشفوا وجوههم تماماً، تآمروا مع زعماء قرية السطاية على إشعال معركة بين أبناء القريتين، متعهدين لأهل «السطاية»، بأن يمكنوهم من رقاب أعدائهم أبناء المذعورة، وأن يقدّموا لهم منطقة واسعة من القرية، يضمونها إلى قريتهم «السطاية»، لقاء أن يدعمهم أهل السطاية، ضدّ مواطنيهم أبناء المذعورة، فيقدموا لهم المال والدعم، بوسائل ماكرة خفيّة.. وفي الوقت ذاته يظلّ «الملاعين» يتظاهرون بمعاداة أهل السطاية، ويزعمون أنهم بحاجة إلى المال والسلاح، لمقاومة خطر «السطاية»، فيجمعون الأموال الطائلة من أهل قريتهم، وينهبون محاصيلها، بحجة أنهم سيشترون سلاحاً لمقاومة «أهل السطاية المجرمين». وحين كشفوا عن وجههم الحقيقي، كان أهل السطاية يسيطرون على قسم كبير من أراضي القرية، وكان أبناء القرية في حالة مزرية من التفكك والخوف والذعر، وأكثر ذعرهم كان من الملاعين أنفسهم، لأنّ أهل السطاية ما كانوا يخيفونهم أبداً، فهم أعداء مكشوفون. أمّا الملاعين، فيزعمون أنّهم حريصون على مصلحة القرية، وعلى حفظها من الأعداء، وتحت هذا الستار، يضطهدون أبناءها، ويسرقون محاصيلهم وينهبون ثرواتهم..

كان أكثر سكان القرية ينتسبون إلى قيس عيلان، القبيلة العربيّة القديمة، وهم عشائر شتّى، يجمعها كلها اسم «قيس».. وكان مختار القرية، قبل أن يسفر «الملاعين» عن وجههم بشكل جزئي، أحد أبناء القبيلة، وهو متهوّر مسرف على نفسه، معتدّ بشخصه إلى درجة الغرور، فاستغلّ الملاعين نقاط ضعفه هذه، وغذّوا في

أعماقه نزعة الغرور، وأفادوا من غفلته، في استدراجه وتوريطه، في أمور لا تشرفه عند أبناء قبيلته، إذْ استخدموه مطيَّة لضرب خصومهم، باسمه وبسيفه، ثم أزاحوه ليستبدلوا به شخصاً آخر، يساويه في الغفلة، إلاّ أنّه أقلّ منه شجاعة، وهو كذلك من أبناء القبيلة، إلاّ أنّهم جرّوه كما جرّوا سلفه، إلى وكر تجمعهم المسمّى «جمعيّة إحياء القرية»، وطلبوا منه التحدّث باسم الجمعيّة ورفع شعاراتها الغامضة ذات الدويّ واللمعان.. وحين استهلكوه ركلوه بأرجلهم، وهيمنوا على القرية باسمهم الصريح، ووجههم الكالح..

ويروي أهل القرية، أن السمسار الذي غدر بهم، وقاد أهل السطاية، إلى قريتهم ليحتلوا جزءاً منها ويضمّوه إلى قريتهم.. هذا السمسار، هو الذي صار مختاراً للقرية، بعد أن غدر بكثير من زملائه الذين آزروه في مكره وتآمره ضدّ أبناء القرية، واسمه «داشر المذعور»، وهو ينتمي إلى أصل منحط هزيل لا شأن له، حتى بين الملاعين أنفسهم، وتدعى عشيرته «عشيرة المذاعير»..

ولم يلبث، بعد أن صار مختاراً، أن استعان بأبناء عشيرته خاصّة، وبالملاعين عامّة، وبدأ يفرض على الناس في القرية نوعاً من السيطرة الغريبة، التي لم يألفوها في حياتهم.. إذ يسرق أموال القرية، ويطلب من أعوانه، أن ينشروا بين أهل القرية أخباراً عن أمانته ونزاهته.. ويغتال من يشاء، ويكلف أعوانه بالحديث عن لطفه الشديد، وعطفه الكبير على الناس، ويكذب ويتبجح بالصدق، ويتآمر مع أهل السطاية، ثمّ يتظاهر بأنه

Obeikandi.com

يكرههم ويعدّ العدّة لمحاربتهم واسترجاع الجزء الذي اغتصبوه من القرية.. وهكذا.. كل أقواله تناقض كل أفعاله..

وبعد أن تمكن من الهيمنة على القرية بشكل تام، غير اسمها الباهت القديم، الذي كان الناس يرددونه وهم خجلون من أنفسهم لضياع حقيقته «الهجّامة»، غيرّه ليسميها «المذعورة»، نسبة إلى عشيرته.

ولقد تساءل كثيرون من سكان القرية فيما بينهم: لم لانفعل شيئاً ضدّ هذا الخبيث؟ لمَ لا نخلعه ونستبدل به مختاراً صالحاً..؟ لم.. لم..؟ ولم تكن هذه التساؤلات تذهب هدراً، فقد تحرك ضدّه أعداد كبيرة من الناس، وعلى أزمنة متفاوتة، إلاّ أنّه كان يتمكن في كلّ مرّة، من القضاء على خصومه، فيغتال بعضهم بوساطة أعوانه، ويشتري بعضهم، فيجعلهم من حاشيته يسبّحون بحمده..

وقد تداول أهل القرية فيما بينهم، طوال مدّة «مختاريته» حكايات كثيرة عن ظلمه ودجله وعبثه بأقوات أبناء القرية ومصائرهم..

openkanali.com

العنوان

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً، حين غادرنا المدرسة الثانوية الكبيرة، الواقعة في حيّ من أحياء «حلب» الجنوبيّة.. وكان المصلّون قد فرغوا لتوّهم من أداء صلاة الظهر، وباشروا بالانصراف من المسجد القريب من المدرسة.. كنت أحمل محفظة كتبي باتجاه موقف الباص، الذي يبعد عن المدرسة حوالي مئة وخمسين متراً، وذلك كي استقلّ الباص باتجاه وسط المدينة، حيث مقرّ سكني.. كانت زرافات الطلبة، من المرحلتين الإعداديّة والثانوية، تملأ الشوارع الفسيحة المحيطة بالمدرسة.. بعضهم أنهى دوامه وانصرف، وبعضهم جاء ليبدأ دوامه المسائي في «الفوج الثاني»؛ إذ النظام في المدرسة يقضي بتوزيع الطلبة إلى فوجين متعاقبين «صباحي ـ مسائي»، كما هو متّبع في أكثر مدارس القطر..

ولقد اعتاد كثير من الطلبة، مصاحبة بعض مدّرسيهم في الطريق عند الانصراف من الدوام، لأسباب شتّى.. منها اتّحاد الطريق المؤدي إلى مساكن بعض الطلبة والمدرسين، ومنها رغبة بعض الطلبة في التقرّب من هذا المدرّس أو ذاك.. ومنها رغبة بعضهم في السؤال عن موضوع ما، أو مسألة ما من المسائل الداخلة في اختصاص المدرّس، مما له علاقة بالمادّة التي يدرّسها للطلبة.. ومن هذه الأسباب سبب شعوريّ خاصّ، لدى بعض

الطلبة، يجعلهم يعتقدون أن المدرّس خارج نطاق المدرسة أكثر إنسانيّة منه داخل المدرسة؛ فالمدرس في المدرسة «مدرّس»، أي رجل علم وحزم ونظام.. أمّا خارج المدرسة، فهو إنسان.. إنسان كالآخرين، وهذا يجعله أكثر أنساً مما هو عليه في الصف أو المدرسة.. هذا من وجهة نظر بعض الطلبة..

أما من وجهة نظر بعض المدرسين ـ وأنا واحد منهم ـ فالعمليّة ذات شقّين.. بل لعلّها عملة ذات وجهين.. فليس الطالب وحده هو الذي يلتمس بوارق النزعة الإنسانية الكامنة في أعماق المدرّس خارج المدرسة.. بل المدرّس كذلك، يحبّ أن يتلمّس بوارق هذه النزعة وأبعادها في أعماق الطالب، بعيداً عن ضغط النظام المدرسي والمناهج، والطاعة المفروضة على الطالب تجاه مدرسه، وضبط الوقت المخصص للحصص الدراسيّة، الذي لا يسمح كثيراً بالانطلاق في عوالم النفس الإنسانيّة، والخيوط التي تشكل نسيجها المتشابك الهائل، من اجتماعيّة وسياسيّة ووراثية وصحيّة.. ونحو ذلك.. كانت لديّ قناعة ـ وما تزال ـ بأن التعامل مع أيّ مخلوق من مخلوقات الله على وجه الأرض، أيسر بمئات المرّات، من التعامل مع نفس إنسانيّة واحدة.. الوحوش بأنواعها.. الحيوانات الأليفة بأصنافها.. الطيور بأشكالها.. الحشرات بأحجامها.. هوام الأرض جميعاً.. الأسماك صغارها وكبارها.. كل هذه المخلوقات الحيّة، يمكن التعامل معها بصيغ وأساليب وطرائق أبسط بكثير وأسهل، من تلك التي يحتاجها التعامل مع نفس بشريّة واحدة..

لماذا؟ هذا علمه عند الله.. أمّا ما نعلمه نحن البشر، فهو جملة من الأمور البسيطة والسطحيّة، ومن أهمّها أن المخلوقات الحيّة غير الإنسان، لا تستطيع أن تختزن في أعماقها مجموعات هائلة من المواقف المتناقضة، والمشاعر المتناقضة، والأفكار المتناقضة وأنماط السلوك المتناقضة.. فالمخلوق من هذه المخلوقات مثلاً، لم يألف في حياته أن يحبّ مخلوقاً ما، ثم يفرّ منه حياء حين يلقاه، ثم يجلس في بيته يبكي لأن حياءه منعه من الاستمتاع بمؤانسة من يحبّ، وفي الوقت الذي يبكي فيه حسرة وأسفاً، يبتسم لأنه متّع ناظريه برؤية هذا الحبيب، ثم يحسّ في الوقت ذاته بالانقباض الخفيّ، لأنّه تذكّر أن هذا الشخص المحبوب لحظه بنظرة عتب.. ثم يبدأ باستعراض شريط طويل من مواقفه تجاه هذا المحبوب، مما اختزنته الذاكرة، ليرى أيّها سبّب تلك النظرة العاتبة، وعند عملية الاستعراض هذه، تطفر دمعة منه إزاء مشهد، ويبتسم إزاء مشهد آخر، ويتنهّد عند مشهد ثالث، ويضرب جبهته حسرة أمام مشهد رابع، ويبلع ريقه قلقاً تجاه مشهد خامس..

المخلوقات الحيّة جميعاً، أبسط من أن تختزن مثل هذا الذي يختزنه الإنسان الواحد، فيوجّه سلوكه اتجاهات شتّى، تقوى وتضعف حسب قوّة المؤثرات الكامنة في أعماقه، والتي تشكل أجزاء من شبكة النسيج النفسيّ لديه، هذا النسيج المتشابك أبداً، والمتأثّر بما حوله أبداً، والمتنامي بدرجات مختلفة وعجيبة.. أبداً..

كنت قد قطعت نصف المسافة التي تفصل بين المدرسة وموقف

الباص.. وكان يسير إلى جواري عدد من طلبة المرحلة الثانويّة.. بعضهم يحمل حقيبة، وبعضهم يحمل كتبه بيده دون حقيبة؛ إذ لا يملك ثمن الحقيبة، وبعضهم ربط مجموعة من الكتب بقطعة من المطاط ليحافظ على عقدها من أن ينفرط..

المدرسة في حيّ فقير من الأحياء الشعبيّة، إلاّ أن أغلب سكانه من الفئات المحافظة.. إن لم تكن محافظتها تديناً، فتقليداً.. أو نخوة.. أو اعتياداً..

وطبيعة الحيّ هذه، بما فيها من فقر وصبر وأخلاق.. قد تركت كثيراً من بصماتها على طلبة المدرسة.. على نفسياتهم، وعقولهم، وملابسهم، وملامح وجوههم، وأنماط سلوكهم، وأساليبهم في الحديث..

كنت في أثناء سيري نحو موقف الباص، شارداً تقريباً، بل ربما نصف شارد.. افكر في بعض ما مرّ معي من مواقف في هذا اليوم.. في صفوف الطلبة.. في غرفة المدرسين.. في غرفة الإدارة.. وكنت أجد في ذاكرتي بعض المواقف الخاصّة، أو ذات التأثير الخاص، وقد تسمّرت في سماء تفكيري، وكأنها مجموعة من القطع المغناطيسيّة، تتجاذب السيّالة الفكريّة المترجرجة داخل دماغي كبحيرة صغيرة من الزئبق.. وكان أكثر هذه المواقف جذباً لتفكيري، بل أكثر المشاهد، هو مشهد ذلك الغلام، بل الشاب الذي تجاوز الرابعة عشرة من عمره، وهو يبكي في الصفّ.. يبكي بلا ضجيج.. كانت الدموع تنهمر من عينيه بصمت.. لم يكن يملك ثمن كتاب.. وبالتالي لم يتمكن من كتابة الوظيفة

المقررة عليه.. وحين أخبرته بأنني سأحسم جزءاً من درجته.. طفرت الدموع من عينيه وأخفى وجهه بين يديه وظل صامتاً.. أحسست بجمرة تلذع كبدي.. لست أطيق أن أرى رجلاً يبكي.. إن بكاء الرجال يثير في أعماقي مشاعر من نوع غريب، تضغط على أعصابي ضغطاً لا أستطيع تحمله، ولا أعرف له تفسيراً معقولاً..

اقتربت من الشاب وسألته بصوت خفيض رقيق: ما يبكيك يابني!؟ ظل صامتاً ولم يُجب.. ثم كررت السؤال، بصوت أكثر هدوءاً ورقّة: ماسرّ بكائك يا بني؟ أخبرني علّي أستطيع مساعدتك.. ولسوف أسامحك في تقصيرك هذه المرّة، ولن أحسم من درجاتك شيئاً.. صمت وهو ينشج، ثم قال: أستاذ، سأخبرك خارج الصف.. وبالفعل أخبرني.. أخبرني بأن والدته متوفاة، وبأن والده متزوج بامرأة أخرى.. وهي عنيفة، شرسة.. تعامله معاملة سيّئة، وتؤثر في مزاج أبيه وفي تصرفاته تأثيراً كبيراً. وأبوه يعامله بنتيجة تأثير الزوجة، معاملة سيّئة، فيطلب منه العمل منذ انصرافه من المدرسة حتى المساء.. ولا يعطيه من ثمن جهده ما يشتري به حتى حاجاته الأساسيّة من كتب مدرسيّة ونحوها؛ إذ هو متّفق مع صاحب العمل، على أن يسلمه أجرة عمل ابنه كاملة، ولا يعطي الابن منها قرشاً واحداً ـ لأنه ما يزال في سن الجهالة والطيش، ولا يقدّر مصلحته ـ هذا برغم الحالة الماديّة الجيّدة للأب..

آلمني وضع الطالب، فوعدته بأن أساعده في حلّ مشكلته، أو

التخفيف من حدّتها. . كان هذا الموقف أكثر المواقف إثارة في هذا اليوم بالنسبة إليّ. . أما التعسّف الذي مارسه المدير بحقّ بعض الطلبة. . وأما المشاجرة التي جرت بين طالبين بسبب مسلسل تلفزيوني شاهداه بالأمس، أحدهما يراه سخيفاً، والآخر معجب به أشد الاعجاب. . وأما الطلاب الذين تسلقوا جدار السور المحيط بالمدرسة وهربوا لأنهم لايحبون درس الأستاذ «فلان». . أما هذه الأمور فمن النوع المألوف، الذي لا يثير اهتماماً كبيراً. .

كانت قصّة الطالب المسكين قد استأثرت بتفكيري، فتمحور حولها، ولا سيما أنّني وعدته بالمساعدة في حلّ مشكلته، أو في تخفيف حدّتها. . وتكاثرت الأسئلة في دماغي: ما الذي سأفعله في هذا المجال؟ وكيف سأتّصل بالأب؟ وهل ستزداد شراسة الأب وزوجته المتجبرة تجاه هذا المسكين؟ وهل يمكن أن تقدّم إدارة المدرسة أيّة مساعدة في هذا السبيل؟ لا بد من ترتيب الأمر، بشكل يؤدي إلى انصاف الغلام، دون إحداث أيّة مضاعفات، أو ردود فعل انتقاميّة من جانب الوالد وزوجته، في حق الولد. . وتنهدت. . كم في الدنيا من معذبين. . ثم تذكرت ضخامة الأعباء الملقاة على عاتق «المعلّم». . وصعوبة مهمّته، ودقّة المسالك التي يجب أن يسلكها في تعامله مع طلابه أو تلاميذه، وتشعّب هذه المسالك وتشابكها. . عليه أن يخاطب العقول ويملأها علماً. . وأن يصقل النفوس ويهذبها ويملأها خيراً ونبلاً. . وهذا يقتضيه أن يتغلغل في أعماق هذه النفوس والعقول، ليدرك بواطنها، والمؤثرات التي تتحكم في توجيهها. . في البيت، في الشارع، في

المدرسة.. هذا غني وذاك فقير.. هذا متين البنية وذاك معتلّ الصّحة أو مشوّه البنية.. هذا ذكي وذاك ضعيف الذكاء أو غبيّ.. هذا يعيش بين أبوين، وذاك يتيم الأب، أو الأمّ، أو الأبوين.. هذا قرويّ حادّ المزاج، أو غليظ الطبع.. وذاك مدلّل، أو ناعم، مائع.. هذا يفكر بالمسلسل التلفزيوني الرائع.. وذاك يفكّر بكيفيّة الحصول على أجرة الباص الذي سيوصله إلى قريته القريبة من المدينة، بعد أن قرصه الجوع فاشترى بأجرة الباص شيئاً من الطعام... على المدرس أن يخاطب عقول هؤلاء جميعاً، ونفوسهم جميعاً في صف واحد، في حصّةواحدة، لا تتجاوز الخمسين دقيقة في بعض المدارس أو المعاهد، ولا تزيد على أربعين دقيقة في بعضها، ولا تتعدى خمساً وأربعين دقيقة في أكثرها.. فبأيّة عبقرية ينبغي أن يتحلّى، ليصهر كل هذه المفارقات والتناقضات، ويجعل من ثلاثين طالباً أو أربعين، بشراً أسوياء متعلمين طاهري النفوس والعقول.. لا مجرّد ببغاوات تقلّد الأصوات، ولا مجرّد قردة تقلّد الحركات، ولا مجرّد أشرطة تسجيل تشحن كلاماً بضغطه زر، ثم تفرغه بضغطة زر.. ثم لا شيء بعد ذلك..

كنت أسير على مهل، وبعض الطلبة حولي يثرثرون، وكنت قد اقتربت من موقف الباص، حين انتبهت، إلى أحد الطلبة يقول لزميله: أعد سؤالك.. يبدو أن الأستاذ لم يسمع ما قلت..

نظرت إلى الطالبين، فإذا هما أسعد ورضوان، من طلبة الصف الأول الثانوي.. فتساءلت مبتسماً: هل هناك سؤال؟

قال أسعد: أجل أستاذ.. لقد سألك رضوان عن الشاعر الصعلوك «تأبّط شراً» لمَ لقّب بهذا اللقب!؟

ابتسمت وقلت: إننا سندرس هذا الشاعر في هذا العام إن شاء الله، فهو مقرّر في منهاجكم لهذه السنة، وربّما نجد أنفسنا بعد أسابيع قليلة قد تأبطنا بعض قصائده لندرسها ونحللها. ومع ذلك لا بأس بمعرفة سرّ هذا اللقب منذ الآن، على سبيل الاطلاع.. أخبرتهم كيف أن الشاعر حمل سكيناً تحت إبطه وخرج من بيته.. وكيف أن صديقاً له جاء يسأل عنه، فقالت أمّه: إنه تأبّط شراً وخرج.. فلزمه هذا اللقب في حياته وبعد مماته..

كنا قد وصلنا موقف الباص، حين سألني طالب آخر في الصف الثاني الثانوي: أستاذ.. هل هناك علاقة تلازم بين الأدب والأخلاق!؟ أثار سؤاله لديّ نوعاً خاصاً من الاهتمام، فطلبت منه أن يوضح سؤاله بدقة، وما الذي يقصده منه بالضبط..

فقال: أقصد أستاذ.. هل هناك ارتباط حتميّ بين الفنّ الأدبي والأخلاق؟ أعني: هل يجب أن يتقيّد الشاعر، أو القاص، أو المسرحي، بأخلاقيات اجتماعيّة وإنسانيّة معيّنة.. أم أن للفنّ اخلاقياته الخاصّة به، أم أنّه لا يلتزم بالخضوع لأيّ خلق من الأخلاق..

ازداد اهتمامي، بل فضولي لمعرفة الخلفيّة التي انطلق منها الطالب في توجيه سؤاله.. فقلت بابتسامة:

وما الذي أثار في ذهنك هذا السؤال يا شاكر!؟

قال شاكر: لقد كنت أناقش زميلي صفوان بالأمس حول هذا الموضوع.. فقد كان يقرأ رواية لكاتب عربي مشهور، معروف بكتاباته التي تدغدغ الغرائز.. وحين ذكرته بالمستوى الأخلاقي المتدني لهذا الكاتب، أجابني بكل بساطة بأنّه لا علاقة بين الأدب والأخلاق.. وبأن الرجل روائي بارع، يجب أن نستفيد من فنّه ونستمتع به.. أمّا الجانب الخلقي فلا يهمّنا في هذا المجال.. فقد تكون القصّة أو القصيدة ساقطة خلقياً، إلاّ أنها في الوقت ذاته رائعة من الزاوية الفنيّة.. وإذا لم نستطع أن نفصل بين الفن والأخلاق، فإن هذا يعني أن التحجّر الأخلاقي، سوف يخنق الإبداع الفنيّ، ويقضي على مواهب العباقرة والمبدعين..

قلت لشاكر وقد أحسست بنوع هائل من الاستثارة: وبماذا أجبت زميلك يا شاكر؟

قال الشاب متلعثماً: الحقيقة أستاذ.. أنني لم أجد لدي جواباً يمكن أن يقنعه.. فثقافتي المتواضعة في هذا المجال، لا تساعدني على ذلك..

صمتّ، وهززت رأسي دون وعي منيّ هزات متوالية.. ونظرت في الساعة.. لقد تجاوزت الثانية عشرة، بل قاربت الثانية عشرة والربع.. والموضوع خصب جداً ومتشعب.. والحديث فيه مغرٍ ومفيد في الوقت ذاته.. إلاّ أنه قد يكون نافلة، وقد يكون واجباً، حسب الظروف.. فما حكمه الآن؛ ونحن على قارعة الطريق، والزمن محسوب علينا بالدقائق..؟ لابدّ من موازنة بين الخيارات المطروحة، بعد دراسة عناصر الموقف.. وقررت أن

أتخلّى عن أول باص يأتيني للوصول إلى مفصل في هذا الموضوع..

ودرست الأمر: هل أترك الطالب بلا إجابة، فيظلّ فكره أرضاً خصبة لذلك الخبيث يغرس فيها ما يشاء من نباتات سامّة؟ لايجوز..

هل أجيبه إجابة مبتسرة لا تشفي غليله، فلا يزداد إلاّ اقتناعاً بصحّة ما ذكره له صفوان..؟

هل أدعوه إلى بيتي، لأوضح له الأمر برويّة وهدوء؟ قد لاتسمح له ظروفه بذلك، فالواجبات المدرسيّة ثقيلة، فضلاً عن أن أكثر الطلبة في هذه المدرسة يعملون خارج أوقات دوامهم..

هل أترك الموضوع للظروف، علّي أتمكن من شرح بعض النقاط حوله في الصف، أو في الفرصة بين الحصص..؟ ليس هذا الأمر مضموناً، فالفرص قصيرة وهي مخصصة لاستراحة الطلبة، والحصص ملأى بواجبات علميّة مقرّرة..

أحسست بأن الأمر خرج من دائرة النافلة، ليدخل في دائرة الواجب.. واستخرت الله، وحدثته حديثاً موجزاً مركّزاً حول الموضوع، بما يناسب مداركه، والوقت المتاح، وقارعة الطريق.. بينت له أن الأخلاق هي الدعامة الأساسيّة لبناء أيّة أمّة واستمرارها.. وهي الركيزة التي إذا شُرخت، شرخ البناء الذي يستند إليها وتصدّع وانهار.. وهي روح الحضارة.. وهي فوق ذلك روح الفنّ، وهي فضلاً عن ذلك كلّه فنّ قائم بذاته، فنّ فطري بريء جميل أصيل، سكبته يد الرحمة الربانيّة في نفوس

الفضلاء من خلق الله، ليكونوا خلفاءه في الأرض.. فهي لاتخنق الإبداع، بل تقضي على السفاهة فيه، إذ تنقّيه من شوائبه التي تفسد النفس، كما تنقي المصفاة الجيّدة، ماء النهر من كدره وشوائبه التي تفسد الجسم وتعله وتسقمه..

وحدثته بإيجاز عن بعض الفلسفات المنحرفة التي تطرح مقولة «الفن للفنّ» بقصد إفساد الحياة البشريّة ونخر حضارتها بالموبقات وأصناف السفاهة والفجور التي تبث عبر الفنّ والأدب لتتشربها النفوس والعقول، فتشوّه وتسقط في هاوية سحيقة من البؤس والشقاء..

كان الباص الخامس قد مرّ.. وكان الشابّ يصغي إليّ باهتمام.. وكان معنا شابّان آخران، يصغيان إلى الحديث بوعي وانتباه..

نظرت في الساعة.. لقد جاوزت الواحدة.. وأنا لم أصلّ الظهر.. وأمامي ساعتان.. فصلاة العصر تحين في حدود الثالثة.. لا بأس.. لدينا وقت كافٍ.. ونظرت إلى الشاب مستفهماً، ثم سألته مبتسماً:

والآن يا شاكر.. هل كونت فكرة عن الموضوع؟

قال بفرح ظاهر: أجل أستاذ..

قلت مبتسماً: وهل تستطيع إقناع زميلك صفوان بوجهة النظر التي استوعبتها؟

قال دون تردّد: أجل.. أجل، سأحاوره وأفحمه بإذن الله.

obeikandl.com

قلت: بالمناسبة.. هل تعلم أن الحوار فنّ؟

نظر إليّ مستفهما، فتابعت: أجل.. إنه فنّ.. بل فنّ من الطراز الرفيع.. وهو كذلك يخضع للأخلاق..

قال بلهجة المستغرب: الحوار فنّ يخضع للأخلاق؟

قلت: أجل.. تصوّر على سبيل المثال، لو أن حوارك مع زميلك صفوان خلا من الأخلاق، أو تفلّت من ضوابطها المحكمة.. كيف سيكون!

ابتسم وقال: أظنه سينقلب إلى نوع من الصياح والشتائم.. وربما تحوّل إلى عراك بالأيدي والأرجل..

ضحكنا جميعاً لهذا التعليق.. وقبل أن تنتهي أصداء الضحكات نظر إليّ أحد الشابين الواقفين إلى جوارنا، وقال بلا مقدّمات: أستاذ.. والله حيرتمونا..

نظرت في وجه الشابّ.. لقد كان جاداً كل الجدّ.. كان خدّاه الهادئان اللذان ظلاّ حتى لحظات قليلة مشوبين بصفرة خفيفة، قد أصبحا بحيرتين صغيرتين من الدم.. الدم الذي تدفّق فيهما نتيجة الخجل المفاجيء.. إنّه إبراهيم، الشابّ الهاديء الوادع المهذّب الحيي.. ابن الخمسة عشر ربيعاً، الذي يسير مطرقاً، ويتحدّث مطرقاً.. ولا يتكلم إلاّ قليلاً.. وإذا انطلق في سيره مضى كأنه يتحدّر تحدّراً، لا يلتفت.. عنايته بهندامه قليلة.. وعنايته بالمناقشات الفكريّة، خارج نطاق منهاجه المدرسي، نادرة..

الآن أدركت سر بقائه معنا عند موقف الباص كل هذه المدّة..

إنّ في صدره جمرة تحرق أضلاعه، ولا يجد أمامه مندوحة من أن يلقيها بأيّة كيفيّة كانت، قبل أن تذيب أعصابه.. ولكن.. ما هي؟

وضعت يدي على كتفه برفق، وسألته مبتسماً: خير.. يا إبراهيم.. خير.. بم حيّرناك!؟

سألته هذا السؤال، وأنا أتمنى في أعماق نفسي، لو أن المجال متاح أمامي لأقدم للشابّ شاكر، هاتين البحيرتين الصغيرتين المفعمتين بدماء الخجل، مثالاً على ما ذكرته له قبل قليل من أن الأخلاق فنّ.. فن بريء أصيل، فطريّ.. قائم بذاته.. وأن هذه العبارة التي ألقاها في وجه مدرّسه ببراءة وحرقة، ليست خدشاً في وجه هذا الفنّ، بل هي عنصر مكمّل من عناصره.. كنت أتمنى لو أنّ المجال متاح أمامي لأفعل هذا.. إلاّ أنّ هذه الأمنية لم تتحقّق

نظر الشابّ إليّ بحياء بالغ، وشفتاه ترتجفان، وقال:

استاذ.. لا تؤاخذني..

وصمت كمن اختنق الكلام في حلقه..

قل برفق بالغ وأنا أحسّ بالشفقة تجاه هذا الشاب:

ولم المؤاخذة يا إبراهيم.. خذ حريتك في الكلام.. نحن إخوة، ولا داعي للحرج.. قل.. قل يا إبراهيم ما يخطر في بالك..

قال بشيء يسير من الجرأة:

أستاذ.. لا تؤاخذني إذا قلت لك إنكم معشر الأساتذة.. كل واحد منكم يخالف الثاني..

قلت مستوضحاً: وماذا تقصد يا إبراهيم؟

قال: أستاذ.. عفواً.. أنت تحدّثنا بكلام..، وغيرك يحدثنا بكلام آخر..

قلت ببساطة: وماذا في هذا الأمر يا إبراهيم؟ إنّه طبيعي.. فكلّ مدرس من مدرسيكم مختص بمادّة معيّنة، مختلفة عن الأخرى، لذا فمن الطبيعي جداً أن يكون حديث كل منّا مختلفاً عن حديث الآخر..

قال: عفواً أستاذ.. أنا ما قصدت هذا.. ولست غبياً إلى هذا الحدّ.. فأنا أعرف أن اللغة العربيّة تختلف عن الرياضيات، وأن علم الاجتماع يختلف عن الكيمياء..

ابتسمت لهذه اللفتة، ولم أحاول أن أتعمّق السبب الذي دفع الشابّ إليها: هل كنت أنا غبياً، أم كنت أستغبي الشابّ دون وعي منيّ..

سألته: وماذا تقصد يا إبراهيم إذن، في اختلاف الكلام بين مدرس وآخر..

قال ببراءة: أستاذ.. أنت تحدّثنا عن الأخلاق وتحضنا عليها.. وغيرك يحدّثنا بكلام مناقض تماماً..

قلت متظاهراً بالعجب، وأنا أعلم تماماً أن كون الرجل صار مدرّسا، لا يعني البتة أنه صار بالضرورة مربياً، أو حتى صار

obeikandl.com

رجلاً فاضلاً مستقيم الخلق: ومتى حصل هذا يا إبراهيم؟

قال بنزق خفيف بريء: اليوم أستاذ.

قلت: في الصف؟

قال: نعم.

قلت: وما الذي حصل بالضبط؟

قال: دخل علينا أستاذ علم الاجتماع، وبدأ يحدثنا عن التحرّر والتمدّن، وعن سفور المرأة، وأنه أصبح ضرورة اجتماعيّة. وأن حجاب المرأة مظهر من مظاهر الانحطاط والتخلّف والرجعيّة.. و..

كنت أصغي إلى الشاب باهتمام.. وحين توقف عند (و..) بلع ريقه، ثم تابع: وقال لنا الأستاذ إن هذا التخلف هو سبب هزائم أمّتنا في كل حروبها العسكريّة..

صمت الشابّ مرّة أخرى..

قلت أستحثه: ثمّ ماذا يا إبراهيم؟

قال: لقد قال لنا إن الشاب يجب أن ينطلق من إسار التقاليد البالية المتعفنة، ويتحرر من خرافات الماضي.. وإن الفتاة يجب أن تمزق هذه الخرافة التي تسمى «الحجاب» وتخرج إلى عالم النور..

بدأت هذه المرّة أنا ببلع ريقي، وسألته: وماذا قال أيضا ياإبراهيم؟

قال: لقد طلب منّا أن نحرر عقولنا وعقول أخواتنا من الأوهام، وأن نحضّهن على تمزيق الحجاب، وعلى إقامة علاقات

اجتماعيّة مع الرجال.. وأشار إلى أن سرّ النهضة الأوربيّة يكمن في تحرر المرأة من قيودها البالية واختلاطها بالرجال..

ازداد حلقي جفافاً، وبدأت أجد صعوبة في ابتلاع ريقي.. إلاّ أنني تماسكت، وظللت محافظاً على درجة معيّنة من التوازن والهدوء، وقلت استحثّ الشاب: وأيضاً يا إبراهيم..

قال الشاب: لقد أمضى محاضرته كلها في هذا الحديث.. وفي آخر الدرس.. ذكرنا مرّة أخرى بضرورة تحرير أخواتنا من الحجاب..

قلت وقد جفّ ريقي تماماً، وشعرت بأن صوتي قد تهدّج: أولم تجيبوه بشيء يا إبراهيم؟

قال الشاب: بلى أستاذ.. لقد سأله زميلنا محمود قائلاً: أستاذ هل لك أخت؟ فقال الأستاذ بافتخار وزهو: أجل.. فقال له محمود: وهل حررتها أستاذ؟ فابتسم الأستاذ ابتسامة الواثق بنفسه وقال: أجل يا بنيّ، لقد علمتها كيف تدوس على الحجاب، وكيف تختلط بالرجال

قال محمود: ولكن أستاذ.. ألاتخاف عليها؟

قال الأستاذ: ممّ أخاف عليها!؟

قال محمود: من الانحراف استاذ.. من السقوط لا سمح الله.. فضحك الأستاذ وقال: يبدو أنك ما تزال تفكر بعقليّة القرون الوسطى يا محمود..

قال محمود: كيف أفكر بعقليّة القرون الوسطى يا أستاذ.. إن

المرأة مرأة والرجل رجل، وإن التقاءهما بشكل غير مشروع يعني حكماً فسادهما.. فهل يهون عليك يا أستاذ أن تقع أختك لاسمح الله في حبائل الشيطان، فتعشق أحد الرجال.. قال الأستاذ بفوقيّة واعتداد: إذا كان هذا هو منطقك يا محمود، فيسرّني أن أخبرك بكل فخر، بأن أختي فعلاً عاشقة، وأن علاقتها مع عشيقها قائمة على الحبّ والتفاهم والاحترام المتبادل.. وأنا من ناحيتي أحضّها باستمرار على تمتين هذه العلاقة وتقوية أواصرها.. لا لشيء، إلاّ لإيماني المطلق، بأن هذه الأمّة المتخلفة، لن ينقذها من تخلفها وانحطاطها إلاّ انعتاق المرأة من قيودها البالية واختلاطها بالرجال بلا حدود أو قيود.. وأيّ حدّ من حريّة المرأة، إنما هو جريمة حقيقيّة بحقّ الوطن والأمّة، بل بحق الحضارة الإنسانيّة، التي يجب أن تسهم فيها أمتنا بأوفر حظ وأكبر نصيب..

وهنا توقف إبراهيم وابتسم..

قلت: ما بالك يا إبراهيم؟ أكمل..

قال بحياء: إنني أخجل أستاذ من أن أكمل الحديث!

قلت: ما دام الحديث قد جرى أمام أربعين طالباً، فما داعي الخجل؟

قال مبتسماً: في آخر الدرس، رفع زميلنا غسّان يده..

قلت: غسّان؟ ذلك الشابّ الماجن السفيه!؟

قال إبراهيم: أجل

قلت: ماذا سأل؟

قال إبراهيم مبتسماً: سأل الأستاذ عن عنوان أخته..

احسست بابتسامة مرّة صفراء ترتسم على شفتي دون إرادة منّي.. وبكميّة ضخمة من الملح تتسرّب إلى خلايا فمي، وفي عروقي..، نظرت في الساعة.. كانت تقارب الثانية إلاّ ربعاً.. كان الباص الرابع عشر قد مرّ، وها هو ذا الخامس عشر يتقدّم نحونا من بعيد.. نظرت ساهماً في الأفق.. التفت إلى الشباب الثلاثة، كانت البسمة الباهتة تعلو وجوههم جميعاً.. وكانت بين شفتي إبراهيم بقايا كلام لم يقلها.. اقترب الباص نحونا.. كاد يصل.. لعلّ إبراهيم يريد أن يخبرني عما جرى بشأن العنوان.. لم أحاول أن أسأله عن بقيّة الحديث.. وصل الباص.. ودّعت الشباب الثلاثة على عجل.. وصعدت الباص، وأنا أنظر إلى البسمة الباهتة على شفاههم.. وبقيّة الحديث عن العنوان تختلج بين شفاه إبراهيم.. ولعلّه تمنى أن لو أسمعني هذه البقيّة.. ولعلّه أيضاً أدرك أنني لست حريصاً على معرفتها..

انطلق الباص، ورأسي يزخر بأفكار شتّى، تشبه أن تكون دوّامة.. بؤرة الاستقطاب فيها مجموعة من الحروف الزرقاء الباهتة المتعفنة، تماسكتْ بطريقة ما، وشكلّت في سماء رأسي المائجة كلمة تدعى «العنوان».

السبت ١١/ ١٠/ ١٩٨٦

الحبْل

كان يحسّ ببعض الضيق.. بشيء يسير من الضيق.. مزاجه ليس على ما يرام.. أجواؤه النفسيّة معكّرة قليلاً.. ولقد مرّت عليه ساعات عدّة، وهو يعاني من هذا الإحساس..الإحساس بالضيق.. والإحساس بانقباض المزاج.. ولم يكن يشعر بأن هذا الإحساس يتناقص.. أوحتى يتوقّف.. بل ربّما كان إحساسه بالضيق يزداد.. يزداد بصورة غير واضحة تماماً. الأشياء من حوله تتغيّر.. المواقف.. العلاقات.. المشاهد. كل شيء من حوله يتغيّر.. بعض الصور المحيطة به يتغيّر بسرعة.. وبعضها ببطء.. حركاته هو وسكناته تتغيّر.. يقوم يمشي.. يجلس.. ينام.. يبتسم.. يجوع.. يأكل.. يقرأ جريدة.. كل ذلك يتغيّر باستمرار.. ينتقل من حالة إلى حالة.. إلاّ أن ذلك كله، لم يخفف من إحساسه بالضيق. عناصر الطبيعة من حوله تتغيّر أحوالها باستمرار.. الريح تهبّ وتسكن.. أغصان الشجر تهتزّ وتهدأ.. هنا عصفور يحط على الشجرة ثم يطير.. هناك سرب من الحمام يتجوّل طائراً في سماء المدينة ثم يختفي..تمر سيارة حمراء مسرعة.. تعقبها بيضاء أكبر منها تبيع أدوات منزليّة تسير ببطء.. صوت بائع هنا.. صوت مغنٍّ هناك... كل ذلك يظهر.. ثم يغيب، فجأة أو بالتدريج.. إلاّ أن ذلك كله، لم يكن ليخفف من إحساسه بالانقباض.. وتعكّر المزاج.. والضيق.

obeikandi.com

كان يشعر أن ضيقه ليس من ذلك النوع، الذي يؤدّي في النهاية إلى الاختناق. . لا. . ليس من النوع الذي إذا تكاثر وتراكم، يؤدي إلى حالة من الاختناق؛ أيّ حالة من حالات الاختناق. . فهناك حالات تؤدي إلى ذلك، بشكل سريع أو بطيء. . هناك حالات من الضيق تخنق صاحبها بأشكال مختلفة. . مفاجئة أو غير مفاجئة. . إلاّ أن هذا النوع من الضيق، لا يشمل حالة من هذه الحالات. . من هذه الحالات التي تسبب الاختناق، أو تؤدّي إليه في النهاية. . في نهاية المطاف. . أو بشكل أدق: إن هذا الضيق من النوع الذي يمكن تلافي خطره.

لم يكن يحسّ بأن ثمّة حالة مرضيّة معيّنة تستولي عليه، وتشعره بالضيق. . ليس هناك حالة نفسيّة أو جسميّة معيّنة تمسك بخناقه، وتضغط على عنقه، أو تجثم على صدره، فتضعف قدرته على التنفس. . ليس هناك حالة بعينها من هذه الحالات، التي تجعله يحسّ إحساساً مباشراً بخطر الاختناق. إلا أنّه بطبعه، يتضايق من أشياء كثيرة. . حالات كثيرة. . مواقف كثيرة. . مشاهد كثيرة. ومن هذه الأمور، مايتعلّق بشخصه. . بطريقة تفكيره. . بتكوين مزاجه. . ومنها مايتعلق بالعناصر الخارجيّة المحيطة به. . عناصر الطبيعة. . البشر. . الأقوال. . الأفعال. . المسموعات. . المرئيات. . وكل عنصر من هذه العناصر، قد يكون مريحاً له في حلات معيّنة. . ومقبولاً في حالات أخرى. . ومزعجاً أو مسبباً للضيق في حلات من نوع ثالث. كان يحسّ بأن ثمة حبلاً وهمياً يلتفّ حول عنقه، يضغط ضغطاً يسيراً على

حنجرته.. يقوى حيناً، ويضعف حيناً.. ويحسّ بأن طرف هذا الحبل، طرفه الثاني البعيد عن عنقه، ليس في يده.. بل يلوح في الهواء.. في متناول أيّة قوّة خارجيّة، من قوى البشر، أو الطبيعة. وقد تمسك بهذا الطرف يد غريبة فتشدّه قليلاً أو كثيراً.. وكل ما حوله أيدٍ.. أيد متنوعة الأشكال والأحجام والألوان.. الكلمة النابية يدٌ.. والمنظَر المؤذي يد.. والفكرة السخيفة يد.. ومنبّه السيارة يد.. والأغنية الماجنة يد.. وهذة الأيدي تتعاقب باستمرار على شدّ الحبل، بدرجات مختلفة من الشدّ..

تأمّل حالته قليلاً.. تأمّلها بشيء من اليقظة والعمق.. أحسّ بضغط الحبل على حنجرته.. صرف النظر عن تأمّله، فخفّ ضغط الحبل، عاد إلى التأمّل، فعاد الضغط من جديد.. تأمّل العلاقة بين الضغط والتأمّل، فازداد الضغط بشكل ملحوظ.. لماذا؟.. إن تأمّل الحالات المرضيّة، أو المزعجة، يساعد على تلافيها.. أو.. على الوقاية منها.. فما السرّ هنا؟ وأين يكمن هذا السرّ؟ وهل ثمّة سرّ أصلاً..؟ لا بدّ، لمعرفة هذا كله، من زيادة التأمّل، وزيادة التأمّل تؤدي إلى زيادة الضغط.. ضغط الحبل على الحنجرة.. وإلى الضيق.. إذن لا بدّ من ترك التأمّل.. التأمّل الجذري في حالته العامّة.. لا بدّ من ترك التفكير في الكليّات.. وفي الأساسيّات.. وترك الحبل على الغارب.. أو: ترك حبله هو ملتفاً حول عنقه من أحد طرفيه، وطرفه الآخر يلوح في الهواء عرضة للمفاجآت.. لابدّ من ذلك.. ويفضّل بعد ذلك، دراسة كل حالة عرضيّة مفاجئة على حدة.. تأمُّل كل

شدّة حبل على حدة.. وكلّ يد تشد طرف الحبل، على حدة..

تنهّد بعمق.. «الحياة كلها منغّصات، فكيف يتقي المرء متاعبها وآلامها..؟»

وبرغم إحساسه هذا، تصوّر أنّه لا بدّ من وجود زوايا، في الحياة المحيطة به، تحتوي على شيء من البهجة.. أو شيء من راحة البال.. أو، في أقل تقدير، لا تحتوي على منغّصات..

فتح جهاز الراديو، باحثاً عن خبر مسلّ، أو موضوع طريف، ففاجأه المذيع بالحديث عن فلسطين.. فانقبض صدره وتعكّر مزاجه.. أقفل الجهاز، وبدأ يفكّر بسبب هذا الانقباض.. هجم عليه بعنف تيّار من الذكريات المتراكمة عبر أربعين سنة.. منذ كان حدثاً لم يبلغ الخامسة من عمره.. «فلسطين المأساة.. فلسطين الذبيحة.. اليهود مجرمون.. حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات.. اليهود قادمون.. اليهود وحوش يتلمظون بدماء الأبرياء.. الحكومات العربيّة انهزمت كلها أمام إسرائيل.. تجّار السياسة العرب يتاجرون بمآسي شعب فلسطين.. الخيانة.. التآمر. الدمار.. الموت.. الرعب.. أولاد الأفاعي.. الجواسيس.. النكبة.. التحرير.حزيران.. تشرين.. الجولان.. غزو لبنان.. دماء أشلاء.. رعب.. رعب.. رعب...»

أحسّ بطرف الحبل يُشدّ، فسعى إلى التغافل عن شريط الذكريات هذا.. إلاّ أنه عبر هذا السعي، وفي أثناء رحلته إلى عالم الغفلة، اكتشف خيطاً من خيوط النسيج الذي يشكل

إحساسه المبهم بالضيق.. إنه الرعب المتراكم في كل طبقات الذاكرة، بدءاً من الطبقة السفلى وانتهاءً بقشرة الدماغ، التي ماتزال تتلقى كل ساعة إشارات ومعلومات مشحونة بالرعب والقلق والسفاهة والجبن والضآلة..

قال في نفسه: يجب البحث عن زاوية أخرى، أقلّ إيلاماً وأقلّ إثارة للقلق.. فنقل إبرة المذياع إلى محطّة أخرى، قبل أن يضغط زرّ التشغيل... إنّه يعرف هذه المحطّة، ويعرف أنواع البرامج التي تهتم بها.. فإذا هو يسمع تمثيليّة.. استبشر قليلاً.. أصغى بانتباه، فإذا التمثيليّة تتحدّث عن معركة اليرموك، وصيحات النصر تتردّد في جنباتها.. غرق في حلم من أحلام اليقظة.. ثم ما لبث أن أحسّ بالحبل يشدّ.. شعر بأن الألم في هذه الشدّة أكبر، ذلك أنّه ما يزال يعاني من ألم الشدّة السابقة، فجاءت هذه لتعزّز ذلك الألم وتقويّه.. أقفل الجهاز مرّة أخرى، ومرّر أصابع يده اليسرى عن عنقه وهو يحوقل.. لم يكن بحاجة إلى معرفة سبب الشدّة الثانية.. لقد خطر في باله أن يتساءل عن مصير البلاد التي فتحتها سيوف اليرموك، فلم ينتبه إلى نفسه، إلاّ وهو يبلع ريقه بصعوبة والحبل يضغط على عنقه..

قال في نفسه: «يا سبحان الله..! حتى الذكريات المجيدة أصبحت حبالاً خانقة..!» ترك المذياع، وأمسك بمجلّة أدبيّة شهريّة، كانت ملقاة بالقرب منه.. نظر فيها، علّه يقع على موضوع يسرّي به عن نفسه قليلاً.. قلّب صفحاتها، فوقعت عينه على قصيدة شعريّة.. قرأ بعض ما فيها، فاشمأزّت نفسه.. كانت

القصيدة مكتوبة على طريقة الشعر الحديث.. وقد اختلطت فيها الأوزان، واضطربت المعاني.. فلم يعرف أين يبدأ وأين ينتهي.. أحسّ أن ذوقه الفنيّ يُسحق بفظاظة ولؤم، بين نعلين غليظتين قديمتين.. قال في نفسه بأسى: «أولاد الـ.. يريدون مسخ شخصيتنا من خلال مسخ ذوقنا الفني..» ترك القصيدة، وبدأ يقلّب المجلّة بحثاً عن قصيدة أخرى.. وقعت عينه على قصيدة منظومة على طريقة «البيت».. قرأ بعض أبياتها، فصدمه خطأ نحويّ، فتجاوزه، ثم صدمه خطأ لغويّ، فبلغ ريقه ثم تجاوزه.. فدهمه خلل في الوزن، فحوقل وتوقّف عن القراءة.. لقد أحسّ بأنه أصيب بالغثيان.. المعاني مسطحة هزيلة.. الصور مبتذلة شائهة.. التراكيب ركيكة سقيمة..

قال في نفسه: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ثم تجاوز الشعر بحثاً عن موضوع فكري.. وقع بصره على عنوان ضخم جذّاب، لكاتب معروف لامع.. قرأ بعض الأسطر، فارتعدت فرائصه.. إن الكاتب يتحدّث عن قضيّة شائكة من قضايا العقيدة، ويخلط فيها خلطاً عجيباً.. إنّه دكتور في الآداب..

قال في نفسه: «أيّ شيطان أغرى هذا المخلوق بالهجوم على هذا الأمر الحساس، دون زاد؟

وأيّ شيطان أوحى لسدنة هذه المجلّة بنشر هذا الخلط والهذيان..!»

ترك المجلّة، ولمس عنقه مرّة أخرى.. لقد بدأ، الشدّ المتوالي، يشكل آلاماً متراكمة.. كل شدّة تعزّز آلام الشدّة التي سبقتها..

عزم على الخروج من المنزل.. قرّر أن يزور أحد أصدقائه.. إنه صديق مرح ودود.. علّه يجد لديه ما يسلّيه..

دخل البيت، وجلس قبالة صديقه، فإذا هو، أي صديقه، يبتسم، ويقول له: هل سمعت آخر خبر عن عمّك «أبي سليمان»؟

بلع ريقه، وقد أحسّ بضيق شديد، وقال لصاحبه بابتسامة باهتة: «لقد زرتك لتسليني لا لتكربني»

قال صديقه معتذراً: العفو.. ظننتك تسرّ بالحديث عن عمّك أبي سليمان.. فإنك تكثر من ذكره حسب علمي.

قال بفتور: «لعنة الله على هذا العم.. الناس تكثر من ذكر الشيطان، فهل معنى ذلك أنّها تسرّ بذكره؟ ثم ألمْ تجد بين كل أعمامي من تحدثني عنه سوى هذا العم المشؤوم..!؟»

قال صديقه: لا تؤاخذني على كل حال، فما قصدت إزعاجك.. ما رأيك في مشاهدة بعض برامج التلفاز؟

قال بفتور: لا بأس.. على أن تكون نظيفة نسبياً.

قال صديقه وهو يقوم ليفتح الجهاز: وهل أنا الذي يصنع البرامج؟ أنت وحظك..

اشتغل الجهاز فإذا شابّ رقيع يتخلّع ويتماجن، ويرفع عقيرته صائحاً: «يا حبيبي حبّك جننّي»

أغمض عينيه وسدّ أذنيه بأصابعه وأطرق ينظر إلى الأرض، وقد أحسّ بأن رأسه يكاد يتحطّم، وبأن الحبل يعتصر عنقه

بشدّة.. وحاول أن يحوقل أو يسترجع فما أعانته حنجرته على شيء من ذلك، فذكر الله في سرّه، وأسند رأسه إلى مؤخرة الكرسي الذي يجلس عليه.. وقد أحسّ بدوار شديد.

obeikandl.com

الدورة

«اعلموا أن ربّكم ليس بأعور» . .

كانت هذه آخر عبارة قرأها في الكتاب. . كتاب العقيدة الذي بين يديه. . وقف عندها، وسرح بفكره بعيداً. . بعيداً في الزمن الماضي. . كانت العبارة تجلجل في أعماقه، وهو يخترق الزمن ليعود إلى الوراء أربعة عشر قرناً من الزمان. . ليتصوّر خاتم الأنبياء وهو يحذر أمّته من المسيح الدجّال. . يستعيذ بالله منه، ويحذّر امّته منه، ويبيّن للناس بعض صفاته. . وقف في تصوّره عند هذا الحدّ، ثم عاد بخياله سريعاً إلى الكتاب الذي بين يديه. . ألقى نظرة على الحديث النبويّ، التقطت عيناه بعض الصفات المذكورة من صفات الدجّال. . ثم امتطى صهوة خياله مرّة أخرى، وهو ـ أي الخيال ـ أسرع مطيّة اعتاد ركوبها في أسفاره البعيدة. . وانطلق باتجاه المستقبل هذه المرّة. . إلاّ أن رحلته في هذا الاتجاه كانت أكثر عنتاً ومشقّة. . كان عليه أن يتصوّر، واقعياً، أموراً لم تحصل. . وأن يربط جملة من العلاقات المعقّدة المتشابكة التي يفترض أنها ستقوم يوماً ما، وستتعقد وتتشابك بكيفيّة معيّنة لايستطيع ادراكها تماماً، وفي زمن معيّن، لا يمكنه تحديده بدقّة. . عليه أن يتصوّر أموراً ويرتّبها. . وأن يتصوّر علاقات ويشابكها فيما بينها، ليحصل على جوّ معيّن، يسهّل له عمليّة تصوّره للمسيح الدجال، وهو يفتن الناس، ويضلهم، ويغويهم. . ليست

عملية التصور هذه سهلة ألبتة.. إلاّ أن لديه مجموعة من العناصر، تساعده في هذه المهمّة، وتعينه على تذليل بعض صعوباتها.. وكان رصيده هذا، ينحصر في مجموعة من المعلومات والاستنتاجات والمشاعر..

المعلومات، تتعلق بقيام الساعة وعلاماتها الصغرى والكبرى.. مما ورد في الآيات القرآنيّة وتفسيرات العلماء لهذه الآيات.. وممّا ورد في الأحاديث النبويّة، وشروح أرباب العلم لها.. ومما يراه قد تحقّق من هذه المعاني في الواقع الحيّ، وما هو على وشك أن يتحقّق..

والاستنتاجات، تتعلق بعمليات الربط بين المنقول من العلم، والواقع من العلاقات البشريّة: «الحفاة العراة رعاة الشاء يتطاولون بالبنيان» أصبح أمراً واقعاً ملموساً، بل فاقعاً إلى حدّ الإثارة..

«يتكلّم في الناس الرويبضة» أمر واقع مشاهد ملموس، بل مفزع؛ فالرويبضات الذليلة التي تهيمن على قرارات الناس ومصائرهم، أكثر من القطط الجرباء في مدائن الفئران..

والمشاعر، على اختلاف أنواعها ودرجاتها، من شفقة، وحبّ، وألم، وقلق، وحيرة، وإحباط، وعجب، ودهشة.. تدور كلّها حول ما هو قائم من علاقات إنسانيّة: إنتاج الآلات المهلكة ووسائل الدمار الماحقة، يتصاعد بشكل شاقولي شديد السرعة.. والأخلاق التي تحافظ على تماسك البشر وتوازنهم، تنحدر بشكل شاقوليّ كذلك، مثير ومخيف. فما الذي يلجم وسائل الدمار عن الدمار، في غيبة الأخلاق، أو انحطاطها!؟

البشريّة التي خاضت حربين مدمّرتين في جيل واحد، لم تمنعها الحرب الأولى وويلاتها، عن خوض الثانية وأهوالها ومآسيها.. بل إن القادة الذين خاضوا الأولى ضباطاً صغاراً، هم أنفسهم الذين خاضوا الثانية ضباطاً كباراً.. خاضوا في دماء الأولى إلى الركب، وفي دماء الثانية إلى الأذقان.. فهل العقول مشلولة، أم محكومة بتناقضات هائلة لا يمكن السيطرة عليها..!؟

الدجل العجيب الذي يسود العلاقات الإنسانيّة فيمزّقها بشكل مذهل، وعلى كل صعيد: سياسيّاً، اجتماعيّاً،نفسيّاً.. يمزّق ما بين الدولة والدولة، وما بين الحكومة وشعبها، وما بين الفرد والفرد، وما بين الفرد ونفسه.. هذا الدجل، ما أسبابه؟ ومتى ينتهي؟ وهل يمكن أن ينتهى قبل أن ينهي هذه الحضارة البائسة التي تتخبط في أوحاله..!؟

وهنا عاد إلى واقعه، وإلى الكتاب الذي أمامه، وإلى صفات الأعور الدجال.. وخطر له خاطر فابتسم «ماذا ستكون وظيفة الدجال لو ظهر الآن، بين هؤلاء الدجالين الذين يغصّ بهم السهل والجبل، والمذياع والصحيفة والتلفاز، والدور والقصور والأكواخ!؟ وهل سيغلبهم جميعاً، ويذللهم حتي يسيروا في ركابه خاضعين صاغرين أم سيغمض عينه ـ غير العوراء ـ ويهرب مولولاً مستجيراً..!؟»

ابتسم لهذا الخاطر، إلاّ أن ابتسامته سرعان ما تلاشت ليحلّ محلّها تأمّل عميق.. هل سيظهر الدجّال حقيقة في هذا العصر، قبل أن تأكل هذه الحضارة نفسها وصانعيها، وتتلاشى وإياهم في غياهب النسيان!؟ وإذا ظهر في هذا العصر، فهل سيتمكن من

ممارسة دجلة وشعوذته وإفساده..؟ يبدو أن في الأمر شكاً كبيراً.. فالرجل ليس محصّناً ضدّ الموت، وقد ورد في الحديث النبويّ أنه سيُقتل.. ووسائل القتل الحاليّة لدى حكام العالم كثيرة وعجيبة.. وحرصهم على مصالحهم ومناصبهم أكبر من أنْ يدعهم نياماً، والدجال يسحب البساط من تحت أرجلهم، وينتزع منهم جماهيرهم التي تطربهم بتصفيقها وهتافها صباح مساء.. لا.. لا.. إن وسائل القتل كثيرة.. والسجون كثيرة وواسعة، وقد أثبتت بالدليل الحيّ أنها تتّسع لشعوب بأكملها.. فهل تضيق عن رجل أعور..!؟ إذن، يبدو أن هذا العصر، عصر الحضارة الراهنة، ليس عصر الدجال الأعور.. وإذا كان ذلك كذلك، فلا بدّ من أن يَطرح هذا السؤال نفسه: ما وظيفة الدجالين الحاليين الذين يقودون ركب الحياة الإنسانية اليوم!؟

وابتسم مرّة أخرى لدى طرح هذا السؤال.. فقد تبادر إلى ذهنه جواب غريب: إنهم يُجْرون للناس دورة تدريبيّة، تؤهّلهم لاستقبال الأعور الدجّال؛ إذ لو جاء بشكل مفاجئ، فقد لا يُحسن الناس استقباله..

عاد إلى التأمّل مرّة أخرى.. يريد أن يتأكد فعلاً من حقيقة الجواب: أهو جدّ أم مزاح، أم مزيج منهما.. لقد اختلطت في ذهنه الأمور، ولا بدّ من أن يعيد في دماغه ترتيب الحقائق وربطها بشكل منطقي معقول.. فهل ثمّة مشابه حقيقيّة بين وظيفة الدجّال، وبين الوظيفة التي يؤديها الدجالون الحاليون؟ وهل ثمّة مشابه بين صفاته وصفاتهم؟ وهل ثمّة مجال للموازنة بين أسلوبه

وأساليبهم..!؟ إذا كان هنالك إجابات مقنعة لهذه التساؤلات، فيبدو أن حكاية «الدورة» أدخَل في باب الجدّ، منها في باب المزاح.. وبدأ يستعرض شريطين متوازيين: شريط الدجال وأساليبه.. وشريطاً آخر يحتوي على بعض الدجالين الذين عرفهم، وأساليبهم، وأنماط تعاملهم مع الناس.. إلاّ أنه لدى استعراض بعض الصور الأولى من كل شريط، تبيّن له أن الموازنة بين مجموعة من الأساليب لمجموعة من الناس المختلفين عقولاً وأمزجة، وبين أسلوب رجل واحد.. فيها شيء من الإرباك، قد يشوّش صفاء ذهنه، ويشوب نصاعة تصوّره ببعض الشوائب.. فآثر أن ينتقي دجّالاً واحداً من بين الدجالين الأحياء، على أن يكون أبرعهم في هذا الباب، وأقدرهم على استخدام فنون الدجل الموجودة، وعلى ابتكار ما ليس موجوداً من هذه الفنون.. ليكون هذا الدجال مندوباً عن نظرائه جميعاً، في الموازنة بين أساليبه وأساليب الدجّال الأعور.. فقام بعد دراسة متأنية باختيار أحد الدجالين، قدَّر فعلاً أنّه أمهر من عرف في هذا الباب.. وبدأ باستعراض الشريطين، شريط الدجال الحيّ الموجود، وشريط الدجال الغائب الموعود..

الأعور: يدّعي الألوهية لنفسه، ويطلب من الناس اتّباعه..

وهذا: يدّعي لنفسه حقّ التشريع والتحليل والتحريم، وفرض القوانين والأنظمة والمواقف والعلاقات التي ينفرد وحده بتقديرها.. ويطلب من الناس اتّباعه في كل ما يقول ويفعل، والإكثارَ من ذكره وشكره والتغني بعظمته..

الأعور: يدّعي أن لديه نعيماً وجحيماً.. فمن تبعه وضعه في النعيم، ومن عصاه قذفه في الجحيم..

وهذا: يدّعي أن كلّ الذين معه شرفاء طيبون يستحقون الإكرام، والمناصب والثروات والتنعم بلذائذ الحياة.. وأن المخالفين له أشرار سيئون مفسدون، مخربون، ضالّون، مجرمون.. يستحقّون الإهانة والمقت والعذاب والحرمان.. فالسجون كثيرة وأنواع العذاب فيها كثيرة.. وأساليب الحرمان من متع الحياة وضرورياتها كثيرة كذلك ومتنوعة.. وهو يستطيعها جميعاً..

الأعور: يدّعي أنّه يحيى ويميت، ويطبّق هذا الادّعاء فعلاً..

وهذا: يدّعي أنّه قادر على أن يبطش بمن يشاء، متى شاء، وبالكيفيّة التي يريد، دون حسيب أو رقيب.. ويمارس هذا الادعاء فعلاً، فيقتل من يشاء من مخالفيه، بشكل فردي أو جماعي.. في الشارع أو في السجن أو في البيت.. شنقاً، أو رمياً بالرصاص، أو تذويباً بالأسيد.. كما يدّعي أنّه قادر على توفير كل أسباب الحياة، بما في ذلك إنفاق الأموال الطائلة لإجراء عمليات جراحيّة معقّدة في أكثر الدول تقدّماً، لإنقاذ مؤيديه من قبضة الموت..

الأعور: يتبعه خلق كثير، اعتقاداً بألوهيته، أو طمعاً بنعيمه، أو خوفاً من بطشه..

وهذا: يتبعه أناس كثيرون، اقتناعاً بصحّة دعاواه، أو بأنه أمر واقع لا مفرّ منه، أو بأنّه أفضل بديل موجود على الساحة.. أو يتبعونه

طمعاً بما عنده من مغريات، أو خوفاً من نقمته وبطشه واستبداده..

الأعور: يمكث في الناس أياماً معدودة أحدها بطول سنة والآخر بطول شهر والآخر بطول أسبوع.. ثم تمضي أيامه عاديّة.

وهذا: يوحي للناس بأنه باقٍ على رؤوسهم إلى الأبد، وأنه لامفرّ من اتّباعه، ويمارس أساليبَ تجعل الناس يشعرون بأن اليوم الواحد في ظل حكمه يعدل سنة كاملة.. ثم يخفّ هذا الشعور تدريجياً، حتى يعتاد الناس في النهاية على نمط حكمه.. فتبدو أيامه عاديّة..

الأعور: يُقتل في آخر أمره

وهذا: يتصوّر أنه سيقتل، بل يعتقد من خلال تجارية وممارساته، ومصائر الذين سبقوه، بأنه سيقتل لا محالة، وسيشرب من الكأس التي سقى منها الآخرين..

الأعور: يطوّع الناس جميعاً، ولا يقف في وجهه إلاّ الذين يستندون إلى ركن قويّ من الإيمان بالله..

وهذا: يتبع أساليب شتّى ليخضع الناس جميعاً، يخضعهم قهراً، أو التفافاً عليهم، بتحقيق مصالحهم الشخصيّة، والحزبيّة، والقبليّة.. ولا يقف في وجه قهره ومغرياته إلاّ الذين يستندون إلى ركن قويّ من الإيمان بالله، يعصمهم من الانزلاق وراءه، أو السكوت على فساده..

الأعور: يتحكّم بأقوات الناس وأرزاقهم، من مطعم ومشرب..

وهذا: يتحكم بأقواتهم وأرزاقهم، من مطعم ومشرب وملبس.. فيؤمم ما يشاء من المصانع والمتاجر.. ويحتكر ما يشاء من تجارة خارجية وداخليّة، ويمنع البضاعة التي يريد منعها، ويسمح بالبضاعة التي تروقه، ويضع السعر الذي يقدّره.. ويتحكم بالماء والنور، من خلال شركات الماء والكهرباء.. فيقطعها عن أيّة قرية أو مدينة تتمرّد عليه.. كما يتحكّم بأنواع الزراعة والصناعة، فيأمر الناس بزراعة كذا، ويمنعهم من كذا، ويسمح لهم بصناعة كذا، ويمنعهم من كذا..

الأعور: يُظهر حرصه على الناس وحبّه لهم، ويدّعى أنه جاء لإنقاذهم..

وهذا: يدّعي أنه المنقذ الوحيد للناس من الظلم، ومن البؤس، ومن اعتداء الآخرين على حقوقهم.. وأنه ليس له مصلحة شخصيّة في بسط حُكمه على الناس، وإنّما حبّه للناس وإشفاقه عليهم، وحرصه على تحقيق مصالحهم ورفع مستواهم.. كل ذلك دفعه إلى التضحية بوقته وراحته وهناء عيشه، ليحكم البلاد ويقود الجماهير إلى كل ما هو خير وحقّ وعدل وجمال..

توقف قليلاً.. هزّ رأسه بأسى، ثم ابتسم بمرارة وقال لنفسه: يبدو أن تصورنا عن حكاية (الدورة) جدّ لامزاح فيه.. بل إنها مصير مكتوب علينا.. فلا حول ولا قوّة إلا بالله.. إنّا لله وإنا إليه راجعون.. إن الأرض كلّها كذلك.. كل شبر منها يحكمه دجّال.. فلا مفرّ.. ولابدّ مما ليس منه بدّ.. ولا بدّ من سلاح الإيمان..

١٩٨٦/١٠/١

الفهرس

مأساة تاجر الذراع ٥
دموع ضرغام ٢٥
حكاية قرية ٤١
العنوان ٤٩
الحبل ٦٧
الدورة ٧٥
الفهرس ٨٣

obeikandl.com